الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الحادى عشر ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ١ يوليه سنة ١٩٣٧ السنة الأولى

فهرس العدد

صفحة			
٦٥٠	عذراء حلب	... ...	بقلم الأستاذ فليكس فارس ... ...
٦٥٧	فى المروج	لمكسيم جوركى	بقلم أحمد فتحى مرسى ... ...
٦٦٣	يوميات نائب فى الأرياف ...	صور مصرية	بقلم الأستاذ توفيق الحكيم ... ...
٦٦٤	عائـــل	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ...
٦٧٤	فى نمرة الموت	لامبروس بيرس	بقلم الأستاذ عبدالحميد حمدى ... ...
٦٨٢	الرســـالة الأخيرة	لرالف بلومر	بقلم محمد عبد الفتاح محمد ... ...
٦٨٧	الطفل السيد	لرابندرانات طاغور ...	بقلم شكرى محمد عياد ... ...
٦٩٢	النقد الذهبى	لفرانسوا كوبيه	بقلم محمد العزاوى ... ...
٦٩٧	اعترافات فتى العصر	لألفريد دى موسيه ...	بقلم الأستاذ فليكس فارس ... ...
٧٠٤	الأوذيســـة	لهوميروس	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...

عذراء حلب

للأستاذ فيلكس فارس

منذ ٢٧ سنة كنت أتصفح تاريخ العرب ، فخطر لي أن أنشيء منه أقاصيص أضمنها الوقائع بأمانة المؤرخ وأنسج بردتها بخيال الشاعر ، وما كان في ذلك العهد من يهتم للأقصوصة فيما أذكر لا ترجمة ولا تأليفاً . كتبت هذه الأقصوصة ونشرتها في جريدتي التي كانت تصدر باسم (لسان الاتحاد) سنة ١٩١٠ في بيروت ، وأردت متابعة التأليف فاجتاحت قلمي عواصف السياسة ترده من الماضي إلى الحاضر . ومرت السنون فاذا أنا أرى هذه الأقصوصة بين مئات الصفحات التي أملتها السياسات الحوالة كحجر كريم يلتمع على أكوام من الرماد .

فيلكس فارس

ولما فتح بيت المقدس أبوابه لعمر بن الخطاب ، وقف هذا الخليفة العظيم على أطلال مملكة الرومان وآثار الملك الخالد الذي وضع آساسه رجل ليس من هذا العالم ، وقف الخليفة حزيناً على تلك الأرض المقدسة التي دنسها الرخاء وتحولت فيها أشرف المبادئ إلى طقوس وأوهام ، فلم يملك النفس أن يحدج البطريرك سفرونيوس بنظرة ما أكثر من يستحقها من كاهن وشيخ في هذه الأيام

وكان الحجر الذي ألقى بعقوب رأسه عليه ليحلم حلمه المشهور مغطى بالأقذار ، فأمر الخليفة أتباعه بتطهير ذلك المكان حيث بنى الجامع الفخم ، ثم دعا إليه أبا عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وخولها السيادة على سورية وفلسطين ، فكانت بلاد قيصرية فيلبس نصيب يزيد ، وسورية على رحبها نصيب أبي عبيدة . فتحت فلسطين أبوابها ليزيد ، وكانت قرية رام الله أول من أبرم عهدا مع الفاتح ، ولكنه وقف عند أبواب قيصرية لمناعتها ، وتحول عنها راجعاً إلى أبي عبيدة فانضم الجيشان العربيان ودفعا قوتيهما إلى سهول سورية ووجهتهما حلب

* * *

وكان يوم من أيام الربيع والنسيم البليل يهب على جنائن حلب المطوقة المدينة تحسبها عقوداً على نحر حسناء . هنالك ، في تلك المدينة التي تنصب الخيرات إليها من جهاتها الأربع : مصر وطرابزون وبغداد وأرضروم ، كان شعب كبير من بقايا مملكة الدنيا ، مملكة الرومان الخالدين بقوتهم وضعفهم وضلالهم ورخائهم

وكانت حلب ، بمدائنها العديدة منفرطة على سهولها الخصبة الخضراء كالثريا بنجومها المبددة على صفحة الأطلس الأعلى . وفي وسطها المدينة الكبرى حاملة قلعتها كالتاج على مفرق بهائها وسلطانها . . .

نحن الآن أمام هذه المدينة الزاهرة في أواخر حكم اليونان على مدخل عصر جديد وحياة جديدة ، في الأسواق حركة التجارة وحياة الأمم ، وفي القصور والجنائن مجالي اللهو والفحشاء : قبور الشعوب . . .

* * *

وكانت غادة من بنات اليونان السوريين جالسة إلى نافذة تطل على البروج في أطراف المدينة وقد

أرخت شعرها على كتفيها وأسندت وجهها الأبيض الناصع إلى يدها وأناملها تتحرك باهتزاز عصبي ، وعيناها شاخصتان تارة إلى السماء وتارة إلى أسوار القلعة الراسية فوق المرتفع كبرج حصين يهدد الآفاق ويهزأ بما انبسط تحته من سهول ...

ومالت الشمس إلى الغرب ، ورنت أجراس المعابد من جوانب المدينة فانتبهت الفتاة ورسمت على وجهها وصدرها رسم الصليب ، وهي معلقة أبصارها على الطريق المتوارية في السهول البعيدة

ولاح بين الجنائن شبح تقدم مسرعا حتى كان أمام النافذة فوقف هناك راسماً حلقة في الهواء ثم اختفى وراء أشجار الفستق الغضة

وأرسلت الشمس قبلتها الأخيرة على أحجار القلعة وتوارت وراء الجبال السحيقة

مرت الساعة الأولى من الليل وساد الظلام

وكانت الحديقة المحاذية لبيت غادة حلب قد أقفرت وأغلق بابها الحديدي

وكأن الأشجار قد شعرت بانطفاء عيون الرقباء فمالت مع النسمات تتعانق أغصانها فتمتزج أوراقها بحفيف كأنه ارتجاء الشعور على النحور ...

وظهرت فتاة تحت جنح الليل ملفعة بدثار من أجل ما نسجت أنوال حلب اليونانية ، وقفت الفتاة أمام المدخل الحديدي وشخصت إلى أعلى رتاجه ، وما عتمت أن انقض من أعلى السور إلى الحديقة رجل ملتف بعباءة وعلى رأسه كوفية سوداء وعلى جنبه يماني محدوب ؛ انحدر كما ينحدر الطير من الهواء منقضاً على غصن ، أو كفراش الربيع تسكره الزهرة بعبيرها فتجذبه إليها ...

— هيلانة !

— دامس !

ووقف البطل العربي مرتجفاً كأنه ماثل أمام اللات والعزى ، يعبد في جمال الفتاة أصنام أجداده ، وضع يمينه على قلبه ، وشماله لم تزل قابضة على مقبض سيفه ، وقال متكلما باليونانية ولهجة الضاد بادية في كل مقطع من مقاطع كلماته :

— إذا كان هذا القلب لا يكفيك من الدنيا ، فخير لي أن أعود إلى الصحراء وأموت . لماذا لا تتبعين من جاء ليقدم إليك حياته ويحملك إلى بلاد الحب

وكان دامس قد جثا أمام هيلانة وهي تنظر إليه ملياً ثم تلتفت إلى ما حولها ، والدمع يجول في عينيها ؛ وبعد سكوت عميق وضعت الفتاة يدها على كتف البطل العربي وقالت :

— أحبك يا دامس ، ولكنني أحب بلادي . إن التي تولد في رياض حلب لا تقدر أن تعيش في لوافح الصحراء . ولولا أنني آملة احتلال جيوشكم هذه البلاد لكنت أبارحها معك لأموت بين ذراعيك حيث تشاء ، ولكن لا تنس يا دامس أن أبطال عمر واقفون على مقربة منا ، وأنني أنتظر مع أهلي وأبناء هذه البلاد الجميلة نهاية استبداد خلفاء هرقل لينهض هذا الشعب البائس من شقائه بعد أن طال استعباده لكبرياء أسياده . لقد استحالت الشرائع السامية التي سادت أجدادنا إلى قذارة عند قاعدة عروش الظالمين الذين لا يعرفون غير شريعة القساوة والاغتصاب . ألا تذكره يا دامس ، ذلك الشاب الزاهد المتشح بالسواد الذي رأيته يتمشى أمام هذه الحديقة في أول يوم رأيتك فيه ؟

— إنني أذكر ذلك

وارتعش دامس كأن فى هـذه الذكرى ناراً لاسعة ، فابتسمت الفتاة بمرارة وقالت :

— أجل هى شرارة الغيرة ، يا ابن الصحراء ! هذه لمعاتها فى أحداقك . لا تنكر . أتظن أننى أحببته ؟ أف لهذا المرض الهائل الذى لا تعرفه بنات اليونان فى رجالهن !

رفع دامس بصره إلى السماء وقد خرج من فمه أنين عميق كأنه زئير ليث جريح وقال :

— إن لم يكن فينا نحن العرب من داء غير هذا الداء لكفانا دلالة على ما فينا من أنفة وشمم . هى معزة النفس تتألم . هو الدم يحترق بحرارة الصيانة والشرف . هو المجد الأثيل ذلك الداء . أو تسمينه داء يا ابنة المجد المتداعى التى لا ترى حولها غير رجال استحجرت قلوبهم وجمد دمهم فى عروقهم المتراخية ! إن الغيرة ليست واحـدة فى قلوب الرجال يا هيلانة ، فمنهم من يغار لأنه تعود الانغماس فى الشهوات فهو لا يرى إلا الشر حيثما أدار بصره ؛ ومنهم من يغار عن صيانة فى النفس ورفعة فى القلب ، وما أنا ممن يغترون بما يشعرون . أريدك سامية كما يصورك خيالى العربى فى دماغى الملتهب . أريدك واثقـة من حبى الى درجة إظهار نفسك أمامى كما هى ؛ ولعلك لا تدركين ما أرجوه منك . لقد لمحت منك نظرة ألقيتها على ذلك الزاهد ولم تزل تلك النظرة مستقرة كالسهم فى قلبى ، وأراك تعمدين إلى التمويه كلما أردت سبر سرك . ونحن معشر العرب لم نتعود الكذب . قولى لى إنك كنت أحببت ذلك الزاهد فلا أحنق ولا أثور ، ولكن الشك فى صدقك وإخلاصك يقضى على . لقد أبت نفسنا أن تلتصق بالكاذبين ونحن نحملها تحت البنود إلى الفتح المبين ...

وكان الحماس قد بلغ أشـده فى دامس وهو يتكلم فارتفعت كوفيته عن جبينه واسترخى عقاله فلاح جبينه الأسمر مكللا بقطرات العرق ، وكانت عيناه ترميان شرراً ؛ وذعرت الفتاة من هذا المشهد فأصبحت مخلوبة أمام حبيبها تندفع الى الاقرار فيصدها ما تراه من حماسة ، كان دامس يطلب الحب فى الحق وهى تحاذر أن يقضى ذلك الحق على حبه

شعرت هيلانة بحرب تستعر فى قلبها بين ماضيها وحاضرها ، فأحنت رأسها بتعب كما تنحنى الزهرة أمام عاصفة هوجاء ، فقالت فى نفسها : « إنه وهو فى شكه يكاد يجن ، فما يكون حاله لو عرف الحقيقة ياترى ؟ » إن الحاضر له ومستقبلى بين يديه ؛ أما الماضى فهو لى ، لى وحدى أحتفظ بأسراره وليس لغير الله أن يسبر أغواره

على أن صوتاً خفياً كأنه الأنين كان يرتفع من ضمير الفتاة هاتفا :

« إن من خدع فى الحب فقد كفر بقلبه وقضى على عواطفه ، إن المحبة المستقرة على الخفايا والأسرار ليست محبة كما أن الله إذا جهل الوجود لا يكون إلـها »

ولكن مدنية ذلك الزمان لم تكن تؤهل أبناءها لسماع مثـل هذا الصوت الحق ، لذلك انتفضت هيلانة كأنها تستفيق من حلم عميق وقالت :

— لقـد رجوتك مرارا يا دامس ألا تعود إلى مثل هذا الكلام . حلفت لك وأكرر أمامك القسم بأننى ما أحببت سواك فاكتف

— أمام قسمك أكذب نفسى وعيانى يا هيلانة ، وأنا أقسم لك بأننى لن أحول عن نيلك مادام فىّ دم وحياة ، ولو كلفنى فتح حلب هلاكى ، فما أنا راجع عن أمانى ولو اضطررت إلى تسلق جدران القلعة وحدى

— اسمع يا دامس ، لقد قطعت على الكلام بلواسع غيرتك الجنونية ، فلم تصبر ريثما أقص عليك ما تعلم . ذكرتك بالزاهد لا لأثير حنقك ، بل لأقول لك إنه مات مقتولاً بسيف أخيه فى ساحة حلب نفسها

— إذاً هو أخ يوا كينا حاكم البلاد ، وآخر حامل لتاج هرقل .. علمنا أن هذا الملك قتل زاهداً ولكننا ما علمنا أن القاتل أخوه

— إن يوحنا الزاهد هو أخ يوا كينا الظالم السفاح ، فان يوحنا الذى أسأت به الظن ، قد دعا الشعب للاستسلام للعرب ، لأنه عرف عدلهم وتيقن نبالة قصدهم ، وكان قد ذهب إلى معسكر أبى عبيدة يتبعه عدد من أهل المدينة فأبرم مع الفاتحين عهداً ، ورجع بمن معه عند الغروب على أمل تسليم المدينة عند بزوغ الفجر ، ولكن يوا كينا كان فى انتظارهم فى الساحة العمومية مع جنده ؛ ولما التقى بأخيه ألقى القبض عليه وأمر بنحر من اتبعوه واحداً فواحداً حتى خضبت الساحة بدمائهم ، فثارت حمية يوحنا فصرخ بأعلى صوته أمام الجماهير المحتشدة :

— لبأت العرب بعدلهم لتخليص الشعب من ظلمك . . .

حينئذ لمع سيف يوا كينا مخترقاً صدر أخيه ، فسقط المسكين قتيلاً وهو يعمل على تحرير قومه من السفاح

وتهدج صوت الفتاة بغصة الدموع ، فشعر دامس بهبوب نسمات الذكرى من وراء القبور فارتعش وكادت غيرته أن ترجع به إلى خطابه المبتور ولكنه ثبت فى موقف التفكر بأحوال الحملة الفاتحة فأمر يده على جبينه وقال :

— وبعد ذلك ؟

— التفت المتهوسون حول يوا كينا لأنهم اعتقدوا فيه الاستبسال فى الدفاع عن البلاد ، وقد تبعوه الى معركة أمس وأنت أدرى بما سيكون

— أليس فى المدينة بقية من حزب القتلى يميل الى التسليم ؟

— بلى ، كلهم يريدون الأمان ، ولكن وقاحة يوا كينا تثقل عليهم ولم تزل أشباح إخوانهم تتراءى فى الليل على الدماء التى خضبت الساحة ولم يسمح الظالم بمحو آثارها

وكان دامس ينكث الأرض برأس سيفه مستغرقاً فى التفكير ، ثم رفع رأسه وقال :

— إلى الملتقى إذاً يا هيلانة ! جددى إيمانك واثبتى على العهد . إن شعبك سيحرر من عبوديته ، وحين يسود العدل ربوعك سأقيم لك من أضلاعى بيتاً تسكنينه على أرض أجدادك ، ولكن اعلمى أننى لم أزل أذكر تلك اللفتة الهائلة .. ويلاه . . . إن الأيام هاتكة الأستار ، فاذا رأيت المستقبل أشد غيرة منك على شرفى فانى أحول هذا السيف الى صميم القلب لأموت . . . لك هذه الدقائق القليلة ، يا هيلانة اهتكى أمامى أستار كبريائك فلا تخادعى نفسك . أجيبى بحق إلهك الذى أعبد وتعبدين ، هل أحببت أحداً قبلى ؟

— لا . . . . .

وتعانق الحبيبان

وكانت قطرات الأمل تسقط كالندى على قلب دامس ، ودموع هيلانه تنحدر متراجمة إلى قلبها كانسكاب الغسلين على حجارة جهنم السوداء ....

* * *

وساد الظلام على مدينة حلب وأرجائها وكانت مضارب الحملة العربية منتشرة حول أبواب المدينة

تشب النيران بينها والجنود واقفون ينتظرون المشاء

على أن من يتميز هؤلاء المربان عن قرب يجد بينهم عدداً وفيراً من سكان المدينة ويرى من حين إلى آخر نسوة يونانيات حاملات للجنود أطباق الحلوى

وكان هواء الليل يحمل إلى بعيد صوت نشيد عربى فخيم يدوى كأنه هتاف الحجاز على أطلال بيزانطة المتداعية ، ثم لا يلبث أن يجاوبه نشيد متقطع باللغة اليونانية كأنه أنين الأجيال المزمعة الرحيل عن ملعب الدنيا

على مقربة من أحد المضارب الواسعة كان البطل دامس جالساً القرفصاء وقد تشنجت أصابعه على مقبض سيفه وهو غارق بالتفكير ، مضت ساعة وهذا الرجل جامد لا يتحرك ولكن خشيش الأعشاب اليابسة أمام مضربه نبهه لقدوم رجل طويل القامة ملتف برداء يونانى وقف أمامه وقال له :

— أراك قانطاً يا دامس وليس لمثل هذا اليوم يحفظ الأبطال القنوط

بقى دامس جامداً ولكن ارتجافا عصبيا كان يجمد جبينه العالى ، فرفع رأسه وقال :

— سوف نعود من حيث أتينا ، وهذا العقاب الكاسر متحصن وراء هذه الجدران . والله لو أن هذا الحصن المنيع حراب مسمومة لاخترقته بصدرى ، ولكنه حجر أصم جامد فلا هو يقتلنى ولا أنا أقوى على تحطيمه

وانتفض دامس محدقا بالقلعة وهى مخترقة السحاب كأنها تهزأ بالزمان

— أواه ! لو يستبدل الله ساعدى بجناحين لأطير وأنقض من حالتى على يواكينا الغائص الآن فى بحار ملذاته !

وسقطت من جفون دامس دمعتان نزلتا ببطء على شاربيه فمسحهما بأردانه وشخص إلى السماء ، وتقدم الشيخ الطويل إليه حتى لامسه ووضع يده على كتفه وقال :

— اسمع أيها العربى . أنا يونانى أحفظ فى ذاكرتى كثيراً من أمجاد مملكة هرقل فى سوريا . أنا مسيحى أؤمن بالمسيح وإنجيله الطاهر ، فأنا اليونانى المسيحى سأسلم أمنع نقطة فى ملكنا إلى يد العربى المسلم ، ويشهد الله أن ما أقوم به إنما هو واجب يمليه الضمير على ، فلست بالخائن ولو وصمنى الناس بالعروق . إن حلب بأسرها تسلم زمامها الخليفة نبيكم ولكن يواكينا العاصى يتحصن فى هذه القلعة ويطيل الحصار مدعياً أنه يصد هجمات الاسلام حفظاً لدين أجداده وهو الذى يدعى المحافظة على الدين قد صبغ الساحة بدماء رجالنا وكان ابنى الوحيد بين أولئك الوطنيين المتمردين على الفساد والظلم

بكيت وحيدى بكل دموعى ، وأقسمت ألا أجيب داعى المنون ، وأن أتمرد عليه إلى أن يقيض لى الله أن أرى انهيار هذا الملك وانحطام عرش يواكينا الغاشم ، إننى لن أترك الحياة الا وأنا أحرق قطعة من عرش يواكينا على قبر ابنى الشهيد

واختنق صوت الشيخ فترة ليرتفع بكل نبرات الاقتناع فقال :

— لست بحاجة لاطالة الكلام لأبرر نفسى أنت تعرف أن النصارى كلهم أنفوا الذل وتركوا الحياة مستعبدين لرجل لا إله له غير كبريائه وشهواته

إن من يلطخ يده حتى بدم ابن أبيه وأمه ليس إلا كافراً بالله وبروح الله ، وأنا أعتقد كما يعتقد جميع العقلاء فى بلادنا أن دين النبي العربى ليس إلا شعلة من روح الحق يرسلها الله الى الأرض لتجديد قوى الخير والقضاء على الفساد والضلال ، فالنصرانية الحقة المتألقة من الطغاة الكافرين بها تمد يدها من قلوبنا لتصافح الاسلام ، وما هو إلا صنوها الذى حطم الأصنام ودعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد

إن يواكينا يتلاعب بنا باسم الدين ليدعم عرشه الهاوى بجماجم أبنائنا ، وهو الكافر بربه فكيف يعتقد بالمسيح ؟ إنما الدين هو العدل ، وما أورث الله الأرض إلا رجال الحق ، وأنتم أولئك الرجال

— إنى أومن بالفتح المبين لاسقاط سلطنة المارقين ، ولكنى لا أتميز السبيل إليه فى قضاء الله ، وهذه القلعة واقفة بين الماضى والمستقبل حلقة جبارة تملأ الفضاء ، وأية قوة ستصل إليها لتكسرها ؟

— إذهب الى أبى عبيدة وتعهد له بفتح القلعة وعد الى لتتم عملنا هذا المساء ، ولتكن جنودكم على أهبة الهجوم

— إنى أتبعك أيان تريد ، اقذف بى الى أشداق الموت . إن الجهاد حق على المؤمنين

ونهض دامس وقد ملأت عقيدته جوانب نفسه ، فخرج القلعة المتلألئة بالأنوار بلفتات النسر المتحفز للانطلاق ، وما تقدم بضع خطوات حتى استوقفه خفقان قلبه العاشق وقد هتف صوت هيلانة فيه : تقدم إلى اللقاء ، الى كوثر الحب المتدفق من شفتى ، فانتفض المجاهد المطلق فى وجدانه يخنق هذا الصوت الدخيل خشية تطرقه الى نبرات الصوت الخالد المهيب فى أعماق ضميره الى الجهاد من أجل الحق ، ولكن البطل العربى فى نشوة إيمانه كان قد لامس بحسه الباطن الوقائع الكائنية التى تتجلى مبادئها وراء الزمان والمكان ، فسمع هاتفاً عميقاً بعيداً عن حواسه يناديه :

إن فى القلعة قبر حبك ، ولكن وراء بابها المحطم بقبضة يدك الخطوة الأولى للعهد الجديد ، بداية حكم العرب المجيد ...

وكانت الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وأخذت الأنوار تنطفىء متتابعة داخل أسوار القلعة ، وبلغ السكر حده فى أدمغة الجنود والحراس فثقلت أجفانهم وناموا وهم يمضغون بقية الالحان اليونانية التى كانوا يتشدقون بها ...

وكان يواكينا لم يزل ساهراً يكرع الراح فى إحدى البنايات الفخمة القائمة إلى جنوب القلعة وبين يديه غادة رومية استندت إلى عود تنطق أوتاره لغة القلوب

وكانت تنشد قائلة :

« وإذا جن الليل وأرسلت السماء من نجومها لمات الأسرار ، عندما يستغرق كل شىء فى السكون ينتبه الكون بأسره فى عين تلمع ، وقلب ينبض ، حينئذ إذا كنت جنديا فاجعل من درعك كأسك ، وإن كنت كاهناً فاكرع الخمرة من كأس الهيكل ، الحب هو الاله المعبود ، فان زهدت فى الحب كفرت بربك »

وكان يواكينا يصوب أنظاره حيناً فحيناً إلى الجهة الشمالية من البرج فتخفق أهداب جفنيه على نظرات منكسرة فى أحداقه

وكانت تقف أبصاره على غرفة موصدة هنالك فى طرف القلعة حيث كان يقيم أخوه الزاهد يوحنا .

هنالك فى تلك الغرفة المدخل السرى الوحيد للقلعة ولكن ذلك المدخل موصد الآن على بقايا أثواب الراهب القتيل وقد علقت بها سلسلة ذهبية مربوطة على ذخيرة انفتحت عن صورة فتاة وخصلة كبيرة من الشعر

للشر فترات همود كما للخير غفلات فى ضمير الانسان

وكان صوت المغنية الرومية يرن فى أذن السفاح فيذهب قسم منه إلى ضلاله ويتساقط قسمه الثانى على روحه كالندى على الأزهار اليابسة . كانت كلمات الأغنية البذيئة تستقر فى شهوته وتدور مع دمه الفاسد ، ولكن اللحن أو النغمات أو الايقاع ، تلك الأصوات السرية التى لم يقو الانسان على إفسادها كانت ترفرف فوق كلمات الأغانى كأنها حمامة بيضاء تائهة فوق جيفة منتنة ، فتذكر يواكينا أن فى الكون شيئاً لا يقدر الانسان أن يتناوله بيد الأرجاس

ولكن هذا المحارب اليونانى العاتى الذى تمنى إلى معقله المنيع على أنهار من الدماء لم تستوقفه طويلا همسات نجواه ، فتقدم مترنحاً فى سكرة إلى الفتاة الرومية يحتضنها ويداعب شعرها الذهبى الطويل موليا ظهره لباب غرفة أخيه الموصدة ..

* * *

وفى تلك الدقيقة ، ابتدأت أخشاب ذلك الباب بالسقوط تحت ضربات خفية وظهر شبح اليونانى الطويل دليل دامس فتقدم باحتراس متطلعا إلى كل جهة ، وكان هنالك حارس ممدد على الأرض فانتبه من نومه مذعوراً قابضاً على سيفه ووقف لينادى ، ولكن دامساً انقض عليه من الغرفة كالأسد الثائر فكتم أنفاسه وألقاه صريعاً ، وكان الشيخ اليونانى قد تقدم كالبرق الخاطف نحو الباب الكبير ففتحه من الداخل ، ولم تمض فترة من الزمان حتى كان أبطال العرب مستولين على الحصن تخفق على مرتفعاته أعلامهم الخضراء ...

* * *

وتكحل الشفق بأوائل ذرات النور

فى إحدى خنادق القلعة كانت جثة باردة ممتدة وقد تقلصت أصابع كفها على ذخيرة مفتوحة تدلت منها خصلة شعر تخضبت بالدم ...

الذخيرة ذخيرة يوحنا الزاهد القتيل يشهد رسم هيلانة وشعرها فيها بما أودى بحياة دامس البطل العربى الذى دون التاريخ فتحه أبواب الحصن المنيع

وفى القاعة الكبرى ، داخل الحصن ، كان رجل يكلل العرق جبينه طارحاً سيفه عند قدميه يدور به أبطال العرب وهو رافع يده هاتفاً :

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

هو يواكينا ذلك المتشهد ، هو مرهق شعبه وعبد شهواته وناحر أخيه بيده هو الجانى على دين الله فى المذهبين الموصلين الى الله

وبين المقابر كان شيخ هرم يحرق قطعة من الخشب الموشى بالذهب فوق حفرة لم تجف ردومها بعد ....

وعلى قصر من قصور حلب الشاهقة ، كانت فتاة ترفع أبصارها إلى السماء وتضع يدها على قلبها معلقة أبصارها على الطريق منتظرة عودة من خلده الحب وأرداه الخداع ...

فليكس فارس

فى المروج

للقصصى الروسى مكسيم جوركى

بقلم الأديب احمد فتحى مرسى

. . . . ومضينا فى طريقنا نحث الخطى ، بعد أن خلفنا وراءنا « ميركوب » نهما كالذئب ، ناقما على العالم أجمع ... فمنذ اثنتى عشرة ساعة أو يزيد ، ونحن ندير اللحظ فى نواحى المرج ، ونتقصى النظر على جنبات الطريق ، علنا نقع على شىء نقيم به أودنا ... ولكن أعيننا حسرت عن درك نهاية ذلك الفضاء المتصل . . . وأخيراً قر منا العزم على أن نصل السير ... ولكن إلى أين ؟ . . ثمة إلى الأمام قليلا . . . فسرنا فى صمت وضيق ، وقد تراخت أعصابنا من الجوع ، وارتهكت مفاصلنا من النصب ، وقصرت خطانا من الأين

وكنا ثلاثة عرف كل منا الآخر فى سامر ليلى على ضفاف « الدينير » وكان أولنا جندياً سابقاً فى الجيش ، رجلا أحمر الشعر ، بائن الطول ، ضامر العود ، طلق اللسان ، يروى الكثير عن حياة السجون ، وعيشة الأسار

أما الثانى فكان شاباً ريق الشباب ، لدن المعاطف ، ضاوى الجسم ، وقد أخبرنا عند لقيانا أنه طالب فى جامعة موسكو ، فلم نعن لذلك كثيراً ، فقد كان كل ما يعنينا أنه جائع طاوى البطن مثلنا

وكنت أنا ثالثهم بوجهى الخفر الصامت ، وحيائى الذى لازمنى منذ بواكر أيامى ، ولن أتطلق معك فى الحديث عن نفسى فليس هذا مقام ذلك ، ولكنى أقصر القول على أننى كنت كثير الوثوق من نفسى ولم أزل كذلك ...

وكنت أماشى الجندى فى المقدمة ، أما الطالب فكان يتخطر وراءنا فى وناء ومهل ، وقد علق بمطفيه شىء بال كان يشبه المطف فى حين من الأحيان ، وعلت رأسه بقايا قبعة زرقاء قديمة ، وبدا فى قدميه حذاء عتيق يخيل إلى أنه التقطه من جنبات الطريق ، أما الجندى فكان يكتسى قميصاً وردى اللون ، وقبعة حربية الطراز ، أما قدماه فكانتا عاريتين شثنتين ... وهكذا كنت أنا أيضاً

وطفقنا نقلب الطرف فى أرجاء تلك المروج الناضرة الجنبات ، فما عادت نواظرنا منها بطائل ألهم إلا السماء الرائقة الساجية ، التى كانت أشبه شىء بطبق أزرق هائل قلب على الأرض ، وكان

* تحتفل الأوساط الأدبية فى موسكو فى هذه الأيام بذكرى مرور عام على وفاة شيخ أدبها الحديث ، وكاتبها النابغ مكسيم غوركى ... وقد توفى غوركى فى مثل هذه الأيام من العام الماضى . بعد أن قضى حياة بائسة طويلة ذاق فيها الكثير من ضروب العوز والفاقة والتشرد ، وقد طبعته هذه الحياة على نوع من الأدب مازه من غيره . وهو افتتانه فى وصف البؤس وذكر البائسين ، وقد تخيرنا له هذه القصة لأنها تمثل — على ما نرى — جانباً من عيشته ، وطرفاً من حياته

الطريق ضيقاً حصباً تلوح على حفافيه أكوام مشتتة من القمح الهشيم ، بينما انتثرت فى نواحى المرج بضعة أعواد جافة أغفلها منجل الحاصد فلاحت كتلك الشعرات البيضاء المتناثرة فى عذارَىْ رفيقنا الجندى

ومضينا فى سيرنا ، ووجهتنا ذلك الأفق البعيد ، وقد ضرب عليه السحاب لِثاما رائقاً غرّاراً ، فرفع الطالب إليه لحظه وأومأ نحوه ببنانه قائلا فى مَخيلةٍ وزهو :

— تلك ولا شك جبال « الكرميان » التى درسناها

فنظر إليه الجندى عجباً وقال :

— جبال ... أى جبال يا رفيق ؟ ... تلك سحابة صافية شفّة كاللبن المروّق ، ووددت من من نفسى لو كانت حقا من اللبن المروّق فنروى منها عطشنا ، ونبل بها صدانا ... ومضت برهة قبل أن ينبس أحدنا ببنت شفة . وأخيرا قال الطالب فى لهجة العاتب :

— لقد قلت لكم إنكم تضربون إلى الأصقاع الغير الآهلة بالسكان ... فقاطعه الجندى قائلا :

— لقد قلت لنا ..؟ حقا هذا دورك لتقول لنا ، فأنت بيننا الضارب بسهم أوفر فى العلم ، ولكن خبرنى يا رفيق أين هى إذن الجهات الآهلة بالسكان .. ؟

فلم يحرْ الطالب جواباً ، وسرنا يُرنّقُ فوقنا الصمت ، وكانت الشمس قد جمعت خيوطها الذهبية عن الكون ولم يبق منها على الأفق إلا الشفق الأحمر الزهىّ ، وقد تمثّل فيه الأمل الباسم ، ولفته غلالةٌ وردية شفّة من السحب ، فبدت الروج موحشة صامتة ، وقد هفا عليها السكون ، ورانت فوقها الهدأة ، وأخيراً قال الجندى وهو يتنصّتُ ويتلفتُ :

— لا شىء هنالك ... لم يبق إلا أن نقضى الليل فى ذلك الصقع النائى ... فهيا نجمع بعض الحطب لنضرم النار أيها الرفاق

فانطلقنا نلتقط من المرج ما اعترض سبيلنا من أضغاث الأعشاب الجافة ، وكنا كلما تثنّى الجسم لالتقاط عود جاف يَسّاقطُ على نفسه ، ويأبى أن يستقيم ويستوى ثانية كأن به رغبة ملحة إلى التمدّد والتطرّح ، لما أضواه من الاعياء والنصب والجوع .

وهتف الجندى أخيراً :

— لو قَيّضَ لنا الله من هذا المرج ثمة جذر من جذور النبات ، فان من الجذور ما يؤكل ؟

ولكن الحزون كانت تبدو حولنا منبسطة ممهدة خالية من الأشجار ... وكان الليل غاشياً على الكون ، وقد رجفت فى ثناياه النجوم الفرّارة ، وضاءة الطلعة ، وهاجةُ الجبين ... وعلى حين غرة أقبل الطالب علينا هامساً :

— أيها الرفاق ... إنّ عن شمالكم رجلا راقداً فى المرج ، فقال الجندى :

— رجل ؟ .. ولم يرقد هنا ؟ لابد أنه مزود بالطعام ... فما يدلج إنسان فى تلك الشعاب النائية دون طعام أو شراب ... هيا نذهب إليه أيها الرفاق

وتقدمنا الطالب بمينيه البرّاقة الخضراء ، فسيح الخطو ، حثيث السير ، وكان الرجل جامدا فى مرقده لا تختلجُ أطرافه ، ولا تطرف عيناه فتطرّقَ إلينا الشك ... وقال الجندى :

— ربما لم يكن هذا رجلا ...

ولكن سرعان ما تبددت الريبُ فقد طرق سمعنا صوت متزنُ الجرس ، متسق النبرات شق غواشىَ الظلام يقول :

— مكانكم .. وإلا ألهبت رءوسكم ؟ !

فانتبهنا فاذا الرجل قد انتهض من رقدته وفى يده « مسدس » صغير ، ألجم به أفواهنا وعقل أقدامنا وأخيرا هتف به الجندى :

— لا تُرَعْ أيها الرفيق ... فلن نمسك بسوء اننا نكاد نصرع جوعا ... فأعطنا شيئاً من الخبز

ولكن الرجل تلبّثَ فى مكانه جامدا لا يختلج ، شاخصا لا يطرف ... فاسترسل الجندى :

— ألا تسمع أيها الرفيق ... فأجاب الرجل وهو راجف واجف

— حسن ... ! فصاح به الجندى

— لا تطرقْ فؤادك الريبةُ أيها الرفيق ... فاننا لا نبغى بك شرا

وتبدّتْ على شفتى الجندى ابتسامة ظافرة ، لم يثبتها الرجل الغريب لطول الشقة وبهمة الليل ... وأخيرا قال الغريب :

— انتظروا ... ثم لوح بيده فى الهواء فسقط عند أقدامنا شىء أسود هوى عليه الطالب بيده ، فاذا به بضع لقيمات جافة مُغبرّة ، سوداء مُشمئنة ، فلم نلق بالا لهذه الصفات الأخيرة المتتابعة ، بل جلسنا حول الجندى ، وكان قد ارتفق الأرض وطفق يقسم بيننا الخبز

— هذا نصيبك أيها الرفيق .... وتلك حصتك أيها الطالب ... وهذا ما تبقى لى .... كلا ، ماهذه بقسمة عدل ، أعطنى قطعة من نصيبك أيها الطالب

فانصاع الطالب صاغراً وأعطاه ما طلب ، وجلسنا نأكل فى صمت ... وقد انفردت عن رفيقىّ وأخذت أحطم ذلك الخبز الجاف بأسنانى التى كانت على أهبة لمضغ الصخر ، وأحسست وأنا ألوكُ فى شدق تلك اللقيمات ، أنها سرعان ما انقلبت دماء دافقة فى الجسم فأنستنى ما مضى من الجوع وما مر من الفاقة ... ولكن عند ما ألقيت فى فمى بما بقى من فتات الطعام أحسست جوعا ممضاً من جديد .... وهمس إلينا الجندى أخيراً :

— إننى على يقين من أن ذلك الرجل معه لحمٌ أيضاً ... وأضاف الطالب :

— وللتثبّت من ذلك أقول إن الخبز يفوح برائحة اللحم ....

وكنا جلوسا بعضنا إلى بعض وقد جمع حولنا الليل مسوحه السود ، وبسط علينا الصمت جناحه الشامل حتى عدنا نسمع ضربات قلوبنا ، ونامّةَ أنفاسنا .... وكنا جائعين !

ومضينا نتداول ونتقاول فى ذلك ، إلى أن أشرت أخيراً على رفيقىّ أن نسطوَ على الرجل فنأكل ما بقى من طعامه دون أن نمسه بشر ؛ وصادف هذا الرأى هوى من نفس الجندى فصاح :

— هيا بنا أيها الرفاق

فقمنا متخاذلين وعمنا شطرَ الرجل ونحن نتأمّل فى خطانا ، فما جزنا خطوتين أو ثلاث خطوات .. حتى أصمّ آذاننا دويٌّ طاق شديد شق سكون الروج الشامل ... فصاح الجندى بالرجل :

— أخطأت المرمى أيها الرفيق ! ...

انتظروا قريباً
السيد عمر مكرم
مع الأستاذ
محمد فريد أبو حديد

وأسرعنا إلى الرجل فألقى الطالب بنفسه على كيس طعامه . . . واتجه الجندى نحو الرجل المسكين وكان قد تطرّح على ظهره وهو واجف راعش ، فركله الجندى بقدمه قائلا :

— كان الأوْلى أن تطلق النار على نفسك أيها الغبىّ — وهتف الطالب مازحا :

— لقد عثرت على اللحم أيها الرفاق فتعالوا نأكل . . .

وجلسنا نأكل من جديد ، وكان الليل حولنا ملثما بظلامه ، سواد على سواد . . . . وعلى حين غرة سمعنا الرجل المسكين يغمغم من صوت خافت كأنه الأنين :

— عفواً . . . أيها الرفاق . . . كيف لى أن أعلم . . . لقد أطلقت النار لأن الرعب ملأ جوانحى . إنى فى طريق إلى مقاطعة « سمو لنسلك » وقد تولتنى الحمّى عند مغرب الشمس ، فوهى منها جسمى ، ووهنت أعصابى ، وأخذت على مذاهب السير . . . إننى أمارس النجارة . . . ولى زوجة وطفلتان لم ترياني منذ أربعة أعوام خلونَ . . . لكم الطعام فكلوا كل شىء . . أيها الرفاق . . »

فأجاب الطالب :

— « وهل نحن فى انتظار إذنك ؟ » ثم همس إلينا الطالب :

— لا شك أن ذلك الرجل معه نقود أيضاً

فأجاب الجندى :

— إنك دائما صائب التخمين أيها الرفيق

ثم نهض الجندى قائلا :

— هيا نضرم النار لننام أيها الرفاق . . .

فالتمعت عينا الطالب ثم قال :

— وماذا عن الرجل ؟

— فليذهب إلى الشيطان . . . أما كفى أن أكلنا طعامه

وتفرقنا من المرج نجمع ما ألقينا من الأعشاب عندما بغتنا الرجل . . . . ثم أشعلنا النار فى كومة الهشيم ، فاضطرمت وتوهجت وأنضت ما حولنا من الظلمة ، فسرى الدفء فى الجسوم ، ودب الكرى إلى الجفون . وطرق سمعنا صوت النجار الخافت يقول :

— أيسمح الرفاق أن أدنو من النار قليلا ؟ . . إن عظامى يكاد يفتتها البرد . . .

وأخذنا عليه العطف فسمحنا له بالدنو ، فأتى يدب على رجليه وقدميه . . وقد أغرق عينيه فيض من الألم ، وغمر وجهه صبغ من الصفرة . . ، وبدا فى لمع النار زائغ البصر ، متكفّأ اللون ، ثم جلس على كثب منا يمرس أطرافه المرضوضة ، ويبسط أصابعه المثناة . . وبعد برهة سأله الجندى :

— ولم لم تركب البحر مادمت على هذه الحال من الاعياء والوهن ؟

فأجاب فى خفوت :

— لقد نصحوا لى أن آخذ طريق البر لأنه آمن على صحتى . ولكنى لا أستطيع الوصول . . وسيطويني الموت فى تلك المروج النائية وان أرى طفلتى الحبيبتين . . يا إلهى . .

وأخذ الرجل يصيح فنهره الجندى قائلا :

— « كفى . . . صدعت رؤوسنا أيها الغبى »

وصحت أنا به :

— « لا تعكر علينا صفو النوم أيها الرجل »

ثم أضاف الجندى :

— أسامع أنت ؟ .. أتظن أنك ستنال عطفنا بعد أن أطلقت علينا النار ؟.

وصمت الرجل وصمتنا ،... واستلقى الجندى على ظهره . وتطرح النجار على كومة من العشب ورقدت أنا عن يمينه ، واضطجع الطالب إلى يساره وهو يتثاءب ويتناوم وبعد برهة هتف الجندى وهو يتأمل فى السماء :

— ما أروع الليل الساكن .. وما أبهج السماء الصافية .. تأمل أيها الصديق . إنه ليخيل إلى أن الله خلق السماء ديثاراً لتلك الأرض الناعسة الغافية . ما أجمل تلك الحياة الطلقة الحرة أيها الرفيق .. إنه قد يكتنفها الجوع . وقد يكدرها البرد ولكننا فيها أحرار طلقاء ... نضرب فى ذلك الفضاء الرحيب لا إمرة لأحد علينا ولا نهى ، بل نحن سادة أنفسنا . لقد كاد يقتلنا الجوع فيها أياماً . . . وها نحن أولاء قد أكلنا وروينا .. ورقدنا نط لمنا بلحظها النجوم الفواتن كأنها تقول لنا : « خفضوا عليكم جأشكم أيها الرفاق .. واضربوا فى فضاء الله الواسع وتعلموا وتدبروا ولا تحفلوا بأحد . »

وصمت الجندى قليلاً ثم قال :

— كيف أنت أيها الرفيق النجار .. لا تكن غاضباً علينا لأننا أكلنا طعامك . . . ماذا كنت تريدنا أن نفعل ومعك طعام وليس معنا شىء . . . ثم إنك ستمر غداً على سوق « بيركوب » فتبتاع منه ما شئت من الطعام .. منذ كم أخذتك الحمى ؟

ومضى موهن من الليل كانت تحمل الريح خلاله إلى همس الجندى وجواب النجار ، ثم غشى الصمت على السكون ، وسكن هزيم الرياح فى الأفق وعقد السكرى أهداب الجفون ...

* * *

— تنبه ... ! تيقظ أيها الرفيق ... دعنا نذهب سريعاً

فانتهضت مرتاعاً من النوم فرأيت الجندى واقفاً بجانبى يستحثنى الى السير وقد تكفأ لونه وتوجف قلبه ، وكانت شمس الصباح الضاحية قد لألأت نواصى الأعشاب فى المرج ...

وتلفت يمينا فاذا النجار ماثل على ظهره ممزق الثياب وكان أزرق الوجه فاغر الفم جاحظ العينين وقد أغرقهما الرعب ، وتصلبت فيهما المحاجر . . .

وهتف الجندى أخيراً :

— أما كفاك تأملاً ... هيا امض بنا ...

فقلت فى تردد :

— أهو ... أهو قتيل ؟ ... هل الطالب ...

فقاطعنى قائلا :

— « ومن غيره ... ربما أنت أو أنا »

واسترسل قائلا :

— أهذا أثر العلم فى نفسه ... أغاية العلم أن يترك رفيقه على هذه الحال ... أما والله لو علمت طوية نفسه قبل ذلك لسفكت دمه ... هيا بنا أيها الرفيق ، يجب أن نذهب عن هذا المكان قبل أن تلمحنا عين انسان .. أفاهم أنت .. إنهم سيكشفون أمره اليوم ويترسمون خطانا ... » ثم وضع يده فى جيبه قائلا :

— ولكن هذا مسدسه معى ... فصحت به :

— ألقه فى الطريق ...

— كلا لن ألقيه . إنه شىء ذو قيمة

ومضينا نحث السير فذكرت فى الطريق طفلتى النجار المسكين فقلت :

— هذا كثير على زوجة الرجل وطفلتيه

فأجاب :

— دع هذا الآن ... وامرع فى سيرك ... عج بنا الى اليمين فأغلب الظن أن البحر فى تلك الجهة

وحدنا عن الطريق فتركت زميلى فى عرض المرج ، وصعدت على وهدة عالية كانت على كثب منا ، وأشرفت بناظرى على ما مضى من الطريق ، فسمعت رفيقى يقول :

— علام تنظر أيها الرفيق .. أدخل فى روعك أن الحياة ستدب فى جسمه ثانيا .. وصمت الرجل قليلا ثم عاد يقول :

— ما أمهر والله ذلك الطالب الذى غافلنا وخادعنا ... ان الناس أيها الرفيق يوغلون فى الشر كلما أوغلوا فى العلم ... يوماً بعد يوم ، وعاماً إثر عام ...

وصمت الرجل فعاد الصمت يبسط جناحيه على الكون ، وبدت الشمس تتلألأ فى صدر السماء ، وضرب الأفق دائرته الزرقاء على المروج فتابعنا السير دراكا ...

وأخيراً قال رفيقى الجندى وهو يخرج من جيبه لفافة من التبغ الرخيص :

— إننى جائع أيها الرفيق

— وما عسانا نأكل هنا ؟

— تلك مشكلة أخرى ...

* * *

وختم الراوى قصته — وكان رجلا أشيب الرأس يرقد الى جوارى فى المستشفى — بهذا القول :

— ومنذ ذلك الحين توثقت وشائج المودة بينى وبين ذلك الجندى لما هو عليه من خلوص النية ، وسماحة الخلق ، فكنت أكن له فى شغاف القلب الحب والعطف ، وأحمل له فى طوايا النفس التجلة والاحترام ، وقد مرنا سويا الى اقليم « كارا » ثم افترقنا الى حيث لا لقاء . فسألته :

— أو لم تعطفك الذكرى بعد ذلك الى ذلك النجار المسكين ؟

فضحك ثم قال :

— ما الذى تريدنى أن أذكره فيه ، أو أستشعره لأجله ... اننى لن ألام على ما حدث له ، ولن تلام أنت ولن يلام أحد غيرنا ... فلن يجدى اللوم ... لأننا كلنا أشباه وحوش ضارية .

اسكندرية أحمد فتحى مرسى

واجب !

ما الذى يمنعك من أن توفر لنفسك القوميسيون ومصاريف المحل و ... الخ إذا وجدت أمامك مورد مصرى يستورد لك الصنف من أشهر فبارك ألمانيا ويسلمها لك رأساً بتكاليفها فقط

مهرب

قلم حبر الكتابة سفنكس القلم الأنيق ذو الريشة الذهب المضمونة عيار ١٤ مثله فى السوق يباع بثمانين قرشا . أرسل فقط ٤٠ قرشا إلى حسين حسنين شارع الطيران نمرة ٣١ مصر الجديدة وللخارج زيادة خمسة قروش يرسل إليكم الطلب فى الحال

مطلوب وكلاء فى الشرق والأقاليم للقلم ولأصناف أخرى مما نستورده من الخارج ما

يوميات نائب فى الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

القاتل !

رأى الأستاذ توفيق الحكيم أن يفسح الأجل أسبوعين آخرين للمتسابقين فى معرفة القاتل لقمر الدولة علوان فى القضية التى ينشرها فى يوميات نائب فى الأرياف ، ففضل ألا ينشر شيئاً منها فى هذا العدد لأن ما سينشره سينم عن القاتل . وإنما نرجو ممن يدخل فى هذه المسابقة ألا يغفل ذكر الأسباب التى بنى عليها حكمه . وآخر موعد لتقديم الردود هو اليوم العاشر من شهر يوليه ./

معروضات باريس
زوروا
شركة بيع المصنوعات المصرية
لتشاهدوا ما أعدته لكم
شركة مصر للغزل والنسج
و
شركة مصر لنسج الحرير
خصيصاً لمعرض باريس
من الأقمشة الفاخرة ذات الألوان الجميلة والذوق السليم

صنع « عاقل » من راحتيه كأساً لذقنه وحدج النافذة بنظره ، وراح يفكر .. هذه ثالثة مرة فى أسبوع واحد يدس ريالاً لزوجته تحت الوسادة ، ويخرج من البيت متسللاً كاللص على أطراف أصابعه لئلا تستيقظ فتسرد له الحاجات المختلفة التى تقتضى زيادة فى النفقة فما يكفى ريال للمطالب العديدة التى يعرفها ولا يجهلها . وماذا عساها تصنع فيما ركبها من الدين ؟.. اللبان له عشرة قروش . والخباز له أكثر من ثمانية عشر قرشاً ... وغيرهما أيضاً ... وكانت العادة أن يؤدى ثمن مايأخذ ، فارتاب هؤلاء الناس لما رأوا أنه يأخذ ولا يؤدى الثمن ، ولو كان عودهم غير ذلك لاعتادوه ، فان غيره يأخذ ويعطى أول الشهر ... ولم يكن يعجزه أن يترك لامرأته ما يكفى ، ولكن . . ولكن ماذا ؟ ماله لا يصارح نفسه ؟ أليست الحقيقة أنه مل هذه الحياة الجافة التى لم يعد يجد فيها متعة أو لذة فهو يضن على بيته وأولاده بما معه لعل وعسى ؟ ؟ عسى أن يتفق أن يلقى مايسره ويجدد نفسه فلا يقول كما قال السمير : « فترانى طول عمرى تائباً من غير عفة ؟ » عسى ؟ أيكذب حتى على نفسه ؟ ويأبى إلا أن يغالط ، وإن كان لا أحد معه ؟ سبحان الله ! أليس على موعد مع « سميرة » تلك الفتاة التى عرفها من صديق له ، وتشبث بها ، كأنها كنز ، لا لأنها كنز بل لأنها تعينه على تغيير هذه الحياة المطردة التى لا تختلف ولا تتنوع ؟ ولو ترك لزوجته الكفاية أما كان يسعه أن يلقى سميرة ، وأن يقضى معها ساعات ينسى فيها أن حياته مملة ، وأن وتيرتها واحدة ، وأن روحه زهقت ؟. آه لماذا لا تستطيع الزوجة أن تكون أبداً جديدة ؟. لماذا تدع زوجها يمل حياته معها ، وإن كان يحبها ويعرف لها قدرها ويشكر إخلاصها ووفاءها ؟ المصيبة أن الزوجة لا يخطر لها أن الرجل يمل هذه الوتيرة الواحدة ... لا يخطر لها أنها هى لا تستطيع أن تأكل كل يوم « ملوخية » لماذا لا تكلف نفسها عناء التفكير فى ما هو خليق أن يجعل الحياة معها كل يوم جديدة ؟ لماذا تفرض أنه لن يمل أو يضجر أو يسأم هذا العيش الذى لا يتغير ..؟

ولم يكن عيب « عاقل » قلة الانصاف ، فلم يسعه إلا أن يقول لنفسه ، وهو مسند ذقنه إلى راحتيه ، إن زوجته أيضاً مثله : أى خليقة أن تمل وأن تضجر ولكنها لا تضجر ولا تمل ، ولا تلتمس مثله التسلية والترفيه عن النفس بما يتفق أن تفوز به خارج

البيت .. بل هى لا تخرج أبداً . إلا إذا كانت معه ولزيارة قريب مريض ، أولداع من هذا القبيل ، ليس لها سواه .. هو محور عالمها كله . لا تكاد تعرف لنفسها حقاً يقابل واجباتها ... حسبها أنها تأكل وتشرب وتلبس وأن تكون حقيبتها فيها جنيهان أو ثلاثة .. ما يكفيها والسلام . فما لها مطلب تعرفه وراء ذلك . لا سينما ولا خلافه ... لم تطلب منه قط أن يحملها معه فى سيارته وأن يجول بها جولة فى الهواء الطلق ... كلا ... أبدا ... مسكينة ... وإنها لأحق بالسيارة منه فقد أبت له أن يركب تلك السيارة القديمة وألحت عليه أن يشترى أخرى جديدة تليق به فاعتذر بانه ليس معه مال ، فخرجت له عن كل ما ادخرت .. ثلاثين جنيهاً وضعتها فى يده ليتيسر له أن يشترى سيارة جديدة بالتقسيط ... ولشد ما يفرحها أن تراه مقبلاً فى السيارة الجديدة وتركب أحيانا معه فتقول له وهى تضحك : « إنها سيارتى . أليست كذلك ؟ » فيقول : « بالطبع » فتقول : « إذن من حقى أن أستعمل الكلاكسون » فيقول : « كما تشائين » فيسرها أنها تضغط الزر من حين إلى حين فيصيح «الكلاكسون» بالناس أن تنحوا عن الطريق . وتضحك مسرورة ثم تخجل فتكف .

ولكن من الانصاف لنفسه أن يقول إن قناعتها به راجعة إلى أن أفقها محدود ، وضيق الأفق نقص ولكنه أثر فضيلة لا شك فيها ؛ أما هو فرحيبُ أفقِ النفس ، فاذا كان لا يقنع بالحياة الضيقة المملة الفئة ، فالسبب هو هذه السمة فى روحه وفى آفاقه ، وبالتالى فى مطالبه وحاجات نفسه .. ومع ذلك ما داعى هذه الفلسفة كلها ؟ .. الواقع أنه لا يحس بامكان القناعة بهذه الحياة الجافة التى لا تنويع فيها ولا اختلاف فى وجوهها ، والمسألة هى لماذا لم يستطع أن يحكم تدبير الجانب المالى بحيث يتيسر له أن يؤدى مطالب البيت على الوجه الكافى المريح ، وأن يستبقى بعد ذلك ما يحتاج إليه فى سد المطالب الأخرى ؟ .. هذه هى المسألة الجديرة بالتفكير والعناية ، وما عدا ذلك كلام لن يغير من الواقع شيئاً ، ولن يسوغ قبيحاً أو يقبح حسناً

بل هناك مسألة أخرى أحوج إلى البت السريع وتلك أنه على موعد مع « سميرة » ولكن صديقاً له دعاه إلى الغداء مع « رفقة » وهى فتاة مسلمة تتسمى هذا الاسم الاسرائيلى ؛ ورفقة شىء جديد ، فلها حلاوتها ولمجلسها أنسه وفتنته الاستفادة على الأقل من الجدة ، وصحيح أنها صديقة صديقه لا صديقته هو ، فليس له مطمع فى أكثر من الحديث والنظر ، ولكن من يدرى ؟.. ولا بأس من إخلاف موعد سميرة ، فانه يستطيع أن يعتذر إليها بعد ذلك وهى تعرف أين تجده على كل حال . .

وهز رأسه متعجباً وقال لنفسه : « كيف يا ترى يعرف فكرى (يعنى صديقه) هؤلاء الفتيات البارعات ؟ » ذلك أنه هو نفسه يجد عسرا وعناء شديدين فى الاتصال بمن يحايلنه من البنات ذوات الدل والحسن ؛ وما أكثر ما تتصدى له الفتيات بجمالهن وزينتهن فى الشرفات وفى الطرق ، فيخجل أن يفعل ما يفعل الشبان الأيفاع ، ويندر أن يزيد على الابتسام ثم ينصرف آسفاً متوجعاً ؛ ولقد وقف مرة فى شارع ينتظر أن يفتح له شرطىُّ المرور الطريق ، وإذا بفتاة تضع كفها البضة على يد الباب وتنظر إليه متبسمة باشة وتقول بصوت حلو :

« افتح ! » ، فحدق فى وجهها مبهوتاً من جرأتها ، مرتاباً فى أمرها ، ثم لم يسعه إلا أن يقول لها : « بالطبع ... تفضلى » ، فرفعت حاجبيها مقدار ملليمترين — كأنما كانت هى الحقيقة بأن تتعجب — وقالت : « صحيح ؟ » بلهجة حيرته ، فلم يدر أهى تستوثق أم تستنكر ؟ ولكنه ترك ذلك وقال : « بالطبع ... ولم لا ؟ ... » ، فضحكت — نعم ضحكت ... قهقهت فى الطريق — وقالت : « مرسى ... » ولكنها لم تركب بل وقفت تتلفت كأنما تشاور نفسها ، أو كأنما تنفض المكان لتطمئن وتستوثق من أنه لا يراها أحد ممن تعرف ثم ردت إليه وجهها وقالت : « فى وقت آخر ... مرسى » كأنما كان يعرفها ويعرف أين يلقاها حين يصبو اليها ، فخفق قلبه خفقات قوية لها فى رأسه دوى ، وأحس أن ركبتيه تخالخلتا ، وصارت يده ترعش كما يرعش المقرور ، وسمع نفسه يقول : « أرجوك .. أرجوك .. لا تخيبى أملى » ، ولكنها رمت إليه ابتسامة ومضت خفيفة رشيقة إلى الرصيف ... وفتح الطريق فى هذه اللحظة ، فلم يسعه إلا أن ينطلق ؛ غير أنه وقف بالسيارة على محاذاة الرصيف ودار فى مقعده ، وأرسل طرفه إلى حيث رآها تذهب ، فلم يعثر لها على أثر ؛ وكان الذى استخفه أنها على التحقيق ليست من بنات الشارع — يدل على ذلك أنها غضة السن صغيرتها ، ولا يكاد يُعقل أن تكون الحرفة قد أدركتها ... مستحيل ! ... ولكن جرأتها ؟ ... أووووه ! ... هذا شىء يطير العقل ...

وكانت له معلمة نمسوية روسية سكن إليها زمناً ؛ ولم يكن يريد أن يتعلم شيئا وإنما كان يبغى أن يعرف فتاة شريفة يستطيع أن يأنس بمجلسها وحديثها ، وأن يقضى معها ساعة كل يوم ينسى فيها حياته المملة ويجدد فيها نفسه ؛ واطمأنت الفتاة إليه ، ووثقت به ، فصارا صديقين ، وكانت قصة حياتها محزنة ، فكانت تقول له بشجوها وهو ينظر إليها وقلبه يفيض بالعطف عليها ، ثم يرفه عنها ويمسح لها على قلبها — حقيقة ومجازا — ولا يتركها إلا بعد أن يعيد إلى وجهها البشر والاشراق ، وإلى نفسها الرضى والسكون ، فوجدت عنده المسكينة ما لم تجده عند أبيها ، وأصدقائها ، فصار عندها فوق الصديق وأقرب ما يكون إلى الحبيب ؛ وأدرك هو ذلك ، ففزع وخشى أن يتورط معها فى علاقة يكون من ورائها حرج له ولها أيضاً ، واتفق يوماً أن فتح أبوها له الباب ، وقال له بلهفة :

« ادخل يا سيدى بسرعة ... ايللى ... ايللى ... »

فسأله : « مالها ؟ »

فقال : « مضطربة ... جداً ... ولا أحد يستطيع أن يعيد إليها نفسها سواك ... عجل يا سيدى ! »

فرمى طربوشه ومعطفه — فقد كان الوقت شتاء — وحث خطاه إليها فألفاها راقدة على سريرها وصدرها يعلو ويهبط كموج البحر ، فتناول كفها فى صمت ومسحها وربّت لها على خدها وإذا بدموعها تتسايل ، وتجرى على خديها الى عنقها ، فقال لها برقة وعطف : « ابكى ... ابكى إذا شئت ... فانه أشفى ... لا تخجلى »

فتنهدت ورفعت كفها الى عينيها ، وكفكفت

من دمعها ، وتركها هو تفعل ذلك وأقبل على ذراعها يدلكها ، وعلى صدرها أيضاً ، وعلى ساقيها ورجليها وهي ساكتة مطمئنة ، وكان وجهه الى قدميها ، وهو يدلكهما ، ثم رمى إليها نظرة خاطفة فألفاها قريرة العين تبتسم كأنما ترى حلماً جميلا ، فرد وجهه الى القدمين وقال لنفسه : « آه .. كان ما خفت أن يكون ... ما العمل الآن ؟ » وحيره السؤال وجوابه ، فترك الأمر للمقادير ولالهام اللحظة ، والتفت اليها وسألها بعينه : « أحسن ؟ » فأجابت بابتسامة ، ونحّت خصلة من شعرها الذهبي عن جبينها الوضاء ، فحنا عليها ، وأراح كفيه الغليظتين على جانبي محياها الدقيق المعارف وقال لنفسه : « هذه فرصتي لتأكيد ما بيننا من التفاوت في السن واستعصاء الحب الطويل العمر ، المأمول الخير بيننا » وكيف يتركها تحبه وهو خليق أن يملها بعد شهور ؟ ومال عليها وثم جبينها فضحكت ضحكة عصبية وقالت : « كأنك أبي يقبلني » وكان هذا ما يريد أن يقرره في نفسها ... أنه كأبيها ... فادعى أنه لم يسمع ما قالت واعتدل وأخرج سيجارة وهم بأن يشعلها ، وإذا بها تنتفض قائمة وتخطف السيجارة ، وترمي بها وتطوقه بين ذراعيها وتهوي على وجهه بالقبل الحرار ، وهو مستسلم لهذه الثورة العصبية وإن كان قد لف ذراعه على خصرها وكأنما أضجرها فتوره ، فدفنته بكفها وانحنت وأنشأت تبكي وتنشج ، كأنما كان قلبها يتفطر ، ثم قالت له وقد سكت قليلا : « معذرة ... إنني آسفة ... قل إنك غفرت لي » فأشار اليها بيده إشارة من يريد أن يقول إنه لا شيء هناك يستوجب الاعتذار ثم قال لها بجد : « اسمعي يا ابلى ... لقد كنت أقدر هذا وأخشاه ... است لي ولا أنا لك فيحسن أن ينتهي الأمر الآن »

فحدقت في وجهه كالبهوتة فقال : « نعم ... هذا خطأ ... خلط فظيع ... وأنا المسئول فقد كان ينبغي أن أقدر هذا كله وأن أستشف النهاية من البداية ... ولكني أعترف أني استعذبت صداقتنا وسكنت نفسي اليها واطمأنت ، فخال الرضا عزمي وأضعف رأيي ، حتى رأيت منك ما رأيت الليلة فعادت الي القوة فهل أنت فاهمة ؟ »

فصاحت به : « ولكن هذه قسوة ... ظلم ... »

قال : « القسوة والظلم أن أدعك تلجين في حالة ليس لها من عاقبة إلا الحسرة والندم والألم »

قالت : « ولكن لا أبغي منك شيئاً ولا مطمع لي في شيء ... إني أعرف أنك متزوج ... دعني أحبك . ماذا عليك لو فعلت ؟ »

قال : « هذا كلام تقولينه الآن ... صدقيني فاني أدري منك بالحياة ، وأعرف بالنفس الانسانية وأطول خبراً ، وأعمق في الأمور نظراً ... تسألين ما ذا علي لو تركتك ؟ الجواب يا فتاتي المسكينة أن علي تبعة أمام ضميري ... أنا أيضاً أحبك ... »

فصاحت مقاطعة : « انتهينا .. تعال تعال .. »

فقال : « مهلاً .. لا تعجلي .. نعم أحبك .. حبي لك حب الصديق بل أكبر وأقوى ... هو كحب الأب أو الشقيق إذا شئت ... ولكنه مع ذلك من نوع آخر ... هل تسمحين لي أن أحدثك بصراحة ؟ حسن ! ... اسمحي إذن ... نعم أحبك حباً لا هو عشق ولا هو صداقة ولا هو حنو أب أو أخ ... لا أدري ماذا هو ، ولكني أدري أنه

يسرني أن أريح يدي على صدرك ، وأن ألمس بأطراف أصابعي تديك ، وأن أطوقك بذراعي ... وأشتهي أن أضمك أيضاً إلى صدري ... أضمك كما يضم الوكر الحمامة ... وأن ألمس شعرك ... أن أعبث به وأرسل خصله المتوجة على خديك الأسيلين ... وأن أرفع ساقك فأضعها على ساقي ونحن نقرأ ... وأحس أحياناً بلسعة نار ... كأن لساناً من اللهب الحامي يرتفع فجأة فيلسع قلبي ثم يزول هذا عني بأسرع مما كان ... فأفيء الى سكوني وبرودي اللألوفين ... وما أكثر ما جلست الى جانبك والكتاب أمامنا ، وذراعي حول ظهرك ؛ وأصابعي على تديك الناهد ... وما أكثر ما نظرت في عينيك كأنما أريد أن أغوص على سر نفسك ... وأحسب أنك لم يفتك ذلك ... ولعلي أسأت به من حيث لا أريد ... ولا أدري ... ولكن ما أكثر ما كبحت نفسي ورددتها عما تشتهي ... إشفاقاً عليك ... اسألي نفسك أين يمكن أن ينتهي هذا إذا بدأ ؟ ... النهاية مخيفة ... لك أولاً ... ثم إني لا أريد أن أعاني الحب ... لا صبر لي عليه ... ولا لذة لي في جنونه ... كلا ... لا أريد أن أحب ... لهذا خنقت العاطفة وهي وليدة ... قلت لنفسي : هي أفعى ، ودستها بقدمي هاتين ... وما زلت أحبك يا إيلي فما يسعني غير ذلك ، ولكنه عطف وحنو ومودة ... ذلك أني كالأعصار ... مخيف ... وأنا أخاف عليك من نفسي لأني أعرف نفسي ... قولي إنك تفهمين وتدركين وتعذرين »

فلم تقل شيئاً من هذا ولكنها ضحكت وقالت : « أشكرك »

ثم قالت وهي تنهض عن السرير وتتمشى في الغرفة : « أشكرك مرة أخرى ... والآن هل انتهى الدرس الذي تلقيه عليّ ؟ »

فقال : « لا تهكمي ... اني أتكلم جاداً ... لماذا لا تفهمين ؟ »

فقالت وهزت كتفيها : « أحسب أن إدراكي قاصر ... هذه الفلسفة عويصة »

فنهض وقال : « إذن لم يبق لي كلام ... فهل تسمحين لي أن أخرج ... أعني أن أودعك ؟ »

قالت ببرود : « أوه ... أمسافر أنت ؟ »

قال : « أظن ... الغالب ... يحسن أن أسافر »

قالت : « أرجو أن أراك بخير »

وشعر وهو خارج أنه أذلها ، فقد باحت له بحبها فصدها وردها بقسوة وغلظة . ولكن القسوة تكون في أحيان كثيرة خيراً من اللين الوبيل ... قسوة ! ولين ؟ كلام فارغ ! فلسفة سخيفة ! لماذا لم ينعم بهذا الحب الذي وفق إليه ؟ ... هذه فتاة جميلة مهذبة تحسن الحديث وتستطيع أن تخوض معه في كل موضوع ، وقد ألقاها القدر بين يديه ، وصارحته بأنها تحبه ، وأنها لا تبغي منه شيئاً ، وأنها تدرك مقتضيات موقفه ، ولا يخفى عليها أنه متزوج ، وأنه رب أسرة ، وأن لا سبيل بينهما إلى أكثر من الصداقة الوثيقة ، وأنها موطنة نفسها على ذلك كله ... وهو يحبها أيضاً ... ليس حباً في الحقيقة ولكنه يأنس بها ، وتطيب نفسه بالوجود معها ، وينشرح صدره ويذهل عما يسخطه ويضجره في الحياة ، فلماذا قطع الحبل وأبى إلا أن يكون سخيفاً أحمق ؟ ... وأين يجد خيراً منها ، وأصفى نفساً ، وأكرم خيماً ، وأحسن وداً وأظرف وأحلى ؟ ... أوه ! ... ولماذا يطلب غيرها ؟

لماذا لا يقنع ببيته ؟ ... يقنع ؟ ... نعم ينبغى أن يقنع بحياته الهادئة المنتظمة ، ماذا جرى لعقله ؟ يجب أن يروض نفسه على الرضى والسكون والقناعة بالوجود ، كما راض نفسه على قطيعة إيللى ... أيقوى على هذا ولا يقوى على ذاك وهو أولى ؟

ولم تتركه إيللى إلا بعد أن يئست — كتبت إليه بضع رسائل تستعطفه وتلح عليه أن يرجع فكان يرد إليها الرسائل من غير أن يفضها ، فقد كان يعرف خطها فلم يسعها إلا أن تقصر

ومضت شهور ، استطاع فيها أن يحمل نفسه على مكروهها ، وأن يلزم بيته ، ويتخلى لعمله ، ويصرف عينه عن النظر والتطلع ، وقلبه عن الاشتهاء ، حتى لقى سميرة ... فتذكر أنه رأى مرة طفلا يفحص الأرض بقدمه فتقلقلت حصاة صغيرة فنحاها الغلام بأصبع رجله ، وإذا بالماء ينبع ويروح يفور منها ويسيل على وجه الأرض . . كذلك هو . . كان شيء فى نفسه محبوسا . . . كانت عواطفه الزاخرة لا يحجبها إلا شيء رقيق . . فلم يكد يلتقى بفتاة تضع أصبعها على قلبه ، كما كان ذلك الغلام يضع بقدمه ، حتى انهدم السد الذى يحجز الطوفان ، كما تقلقلت الحصاة فانبثق الماء من تحتها . ولم تكن سميرة ترضيه ولكنها كانت تعلة . . وكان فيه وفاء فأبى له أن يرمى بها على حين تقبل هى عليه . . غير أنه مع ذلك مل . . مل . . مل . . يريد خيراً من سميرة . . أذكى وأبرع . . وأرشق وأظرف . . أحلى ابتساما . . وأرسخ ثديا . . وأعدل قواما . . لقد سمنت سميرة . . غلظت ساقها واكتنز لحمها . . أوه لماذا تركت نفسها تزداد لحما وتنقص جمالا ورشاقة ؟

وهو اليوم على موعد معها ، ومع فكرى وصاحبته « رفقة » . . وقد اعتزم أن يخالف موعد سميرة وأن يجدد نفسه بلقاء رفقة وان كانت لغيره . ودخل عليه فكرى وقال بلا تحية : « هه ، قم » فأحس عاقل أن رأسه يدور ، ويدور وقال : « إلى أين ؟ ألا يمكن أن تعفينى ؟ »

قال فكرى : « كيف يمكن ؟ إن رفقة تلح على أن أجيء بك »

فقال لنفسه : « تلح عليه ؟ لماذا تلح ؟ كلام فارغ ... وهيه غير فارغ فماذا يعنينى من رفقة أو غيرها ؟ . . لماذا أعذب نفسى وأشقيها ؟ . . ليس همى رفقة . . . بل همى أن أجد فتاة أحبها وحسبى منها ألا أكون ثقيلا عليها وبغيضاً إليها ... يا لتهكم الأقدار ... كانت لنا فتاة تحبنا وتقنع منا بأن ندعها تحبنا ... ولم نكن نكرهها .. ولكنا اغتررنا وتبطرنا فرفسنا النعمة التى ساقها إلينا حسن الحظ والآن نندم ونشتهى أن نحب ونقنع بألا نكون ثقلاء ... يا لسخرية الأقدار ! »

وقال لفكرى : « أرجو أن تعفينى . . . لا أستطيع ... رأسى لا أدرى ماله ... ولكنى لست فى حالة تصلح لمثل هذه الجلسة »

فقال فكرى ملحا : « قم يا شيخ ... رفه عن نفسك ... هذا تأثير العمل المتواصل ... يجب أن تريح نفسك قليلا ... إن هذا انتحار ... قم . قم .. »

فأبى عاقل إلا العناد ، وأصر على الاستعفاء ، فلم يجد فكرى حيلة فانصرف آسفا

ولم يكد يذهب حتى ندم عاقل ونازعته نفسه أن يلحق به ، ولولا الحياء لفعل . وخرج من مكتبه وهو يقول لنفسه : « مالى أنا ؟ إنهما حبيبان فما

محلى بينهما ؟ حسنا فعلت بالاعتذار » وقال لسائقه — فقد كان له سائق بعفيه أكثر الأحيان من العمل — : « اذهب أنت بالسيارة . . سأتمشى »

فسأله السائق : « ألا أقول لهم شيئاً فى البيت ؟ »

قال : « لا أعرف متى أعود ... وخذ ... أعط الست هذا »

وناوله خمسة جنيهات ، وأحس بالراحة لما فعل ذلك كأنما كفّر به عن سيئة الصباح والريال الذى دس به يده تحت المخدة ولم يترك سواه لزوجته ؛ ومشى يحدث نفسه أنه كان سخيفاً مجرماً ... معه كثير ... غير الخمسة الجنيهات التى دفع بها إلى السائق أيضاً ... ومع ذلك يستبقيها ويترك ريالاً ... ولماذا ؟ ... لأنه قد يتفق له أن يلتقى ... أوه باللسخافة ... ونقص العقل ... وسوء الرأى ... ماذا ترى يكون رأى زوجته فيه لو عرفت هذا ؟ .. زوجته التى تثق به ولا يمكن أن يختلج فى نفسها شك أو تخطر على بالها ريبة ؟.. ولو كانت زوجته من هؤلاء المصريات اللواتى لا يفتأن يخرجن إلى حيث لا يدرى أحد ؟ ... أعوذ بالله ! ... لا بل الحمد لله ، والشكر له ، على هذه النعمة الجزيلة ... نعمة الاطمئنان على عرضه وشرفه ... وهل جزاؤها أن يخونها وهى آمنة مطمئنة ، وواثقة فى عفته وطهره ؟ ... لا . يجب أن يكف عن هذا كله ... إن أعصابه متعبة مرهقة ، وهو يزيدها إرهاقاً بهذا السلوك المعيب ، فليكف ليريح أعصابه ، إذا لم يكف وفاء لزوجته واحتراما لها ... بل يكف وفاء لها ، وإلا كان الكف غير خليق بأن يريح ضميره ... يكف والسلام ... هذا هو المهم ... البواعث لا تهم هنا ... ولكن أهى لا تهم ؟ ولا قيمة لها ... أهذا صحيح ؟ ... أوه ... هذا وجع رأس ... أكف والسلام ... وبعد ذلك أبحث عن البواعث ... أستطيع أن أقنع نفسى بشرف البواعث ... ولكن لماذا أغالط نفسى فى الحقائق ؟ ... أمغفل أنا ؟ ... من الذى قال إنى أغالط نفسى ؟ ... إذن كن صريحاً ياشيخ ... هب الآن أن فتاة جميلة من اللواتى يصبو إليهن قلبك قابلتك الآن ؟ ... مجرد فرض بالطبع ... لا أمل فى ذلك ولا مطمع ... ومن أين تجىء منى النفس هذه ؟ ... ليتها تجىء ! ...

وإنه لماش يحدث نفسه بهذا وما إليه ، وإذا به يلتقى بصديق يصيح به بصوت عال كأنما ظنه أصم : « أهلاً » ويعطها كأنما يصيح بقوم بعيدين ، فقال له عاقل : « ماذا عندكم اليوم من المأكل ؟ » وكانت صداقته به وثيقة ، وبين الأسرتين مودة ، فقال صاحبه « زكى » :

« أوه . . وما الذى أدرانى ؟ تعال معى وكل الموجود »

قال عاقل : « حسن . امض بى الى المائدة فانى أتضور جوعا »

فسأله زكى : « وأين السيارة ؟ مع الست ؟ »

قال : « لا الست ولا السيد . . . تركتها لأتمشى »

وبلغا البيت وأقبلت عليه أخت زكى — كريمة — تحييه وترحب به ، فقال زكى : « ألا تهنئها ؟ »

قال عاقل : « خير ان شاء الله ؟ . مبروك على كل حال »

فاضطرم وجه كريمة ، وكانت صبيحة الوجه

نضيرته ، ونجلاء حوراء ، وهيفاء ممشوقة ، وقال زكى : « أنظر الى يدها وخمن »

فنظر عاقل فرأى الخاتم فابتسم وقال : « هل أهنئ بلسانى أو بفمى ؟ »

فقال زكى : « وما الفرق ؟ »

قال : « الفرق هو هذا . تعالى هنا يا ستى . . أين ينبغى أن أقبلك ؟ . . أقول لك . . فى كل مكان إلا شفتيك . . أدع هذين لخطيبك . . فان هذا حقه ولا يجوز أن أعتدى عليه »

ودار بنفسه إحساس غريب وهو يلمس خدها الناعم الطرى ، بشفتيه ، فنظر فى عينيها وهو مقطب وإن كانت عينه تضحك وقال : « هو أولى بالتهنئة . . ليتنى أكون على يقين من أنه يستحقك . . . من هو على كل حال ؟ »

فقال زكى : « ابن عمى ، سيد »

فقال عاقل : « سيد . . . ! »

وأمسك فما يليق أن ينال منه أمام خطيبته ، ويبسط لسانه فيه على مسمع منها ، مهما بلغ من سمة صدرها

وقال زكى : « يظهر أنك لا ترضى عنه ؟ »

فقال عاقل : « طبيعى ألا أرض عن أى رجل يخطفها منا »

فقالت كريمة : « ولكنه لن يخطفنى »

فقال عاقل : « بالطبع سيخطفك . . . أنت نرجستنا الآن جميعاً ولكن غداً ؟ تكونين نرجسته هو وحده . . . ثم إنه سيذهب بك الى الأقصر ، فلا نعود نراك إلا كل حين وحين »

وقاموا الى طعامهم ، فقال عاقل وهو يغرك الخبز الطرى ، أو لبابه على الأصح ، ويفتله :

« ما قولك يا زكى ! إنى أريد أن أحب »

فقال زكى وقد تولته الدهشة : « تريد . . . أن تحب . . . ؟ »

قال : « غريب . . . أليس كذلك ؟ ولكنها الحقيقة . . . نعم أريد أن أحب . . أخشى على نفسى هذا الجفاف فى حياتى ، أحس أنى سأذوى إذا لم يسقنى الحب ماء الحياة . . . »

فقال زكى : « ولكن هل الحب بالارادة ؟ »

وقالت كريمة : « ولكنك تحب زوجتك ؟ »

فقال يجيبهما : « نعم بالارادة . . . أشغل قلبك بامرأة معينة ، يُشْغَل . . . وأنت يا مولاتى أقول لك إنى أحب زوجتى . . . وسأظل أحبها . . . ما فى هذا شك . . . بحكم العادة على الأقل . . . ولكنه حب هادئ فاتر . . . قولى إذا شئت إنه حب رزين . . وماذا ينفع الحب الرزين ؟ . . . ان الانسان يحتاج أحيانا الى وقدة الأتون ليصهر نفسه فى النار ، فيصفو معدنه من الأخلاط التى تتكدس كالصدأ على السلك فتقطع تيار الحياة . . التيار الروحى الذى هو سر الحياة . . . وهذا ما لا تستطيع زوجتى الآن . . . ولا أنا أستطيعه لها . . . كلانا أصبح غير صالح لأن يثير فى نفس صاحبه تلك الزوبعة التى تحرك أعماق النفس وتطفى على السطح بعض ما رسب فيها ، وما لعله أصلح من الطافى الآن . . . النفس تحتاج الى الزوابع أحيانا لابراز الكامن وإثارة الدفين . . . من يدرى ماذا فى أعمق أعماق نفسى ؟ . . . وماذا يمكن أن يدفع بهذا المضمر الا ثورة شديدة ؟ . . . وكم دفنت حبا بارادتى ، فلماذا لا أحب بارادتى ؟ . . . »

فقالت كريمة — وأحس عاقل من نبرات

صوتها العطف — : « يظهر انك تعذبت كثيراً... صوتك وحده يدل على ذلك »

فقال عاقل بابتسام : « أوه ! ... إن أشد ما يعذبني .. أقسى ما أكابد ، هو هذا الفراغ .. نفسي أصبحت صحراء جرداء فهل الآم إذا رحت ألتمس الري والخصب ؟ »

فقالت كريمة : « ولكن زوجتك ... لا تستحق هذا منك »

فقال : « يافتاتي تعلمي هذا الدرس .. لا تنتظري أن تظل نار الحب مستمرة .. لا يمكن .. ما من شيء في الدنيا يدوم ويخلد على الأيام ، فلماذا يخلد الحب وحده ؟ .. هل تحبين خطيبك هذا ؟ »

فاستحيت أن تقول شيئا ، ولكنه خيل إليه أنه يستطيع أن يقرأ في وجهها أن كل فرحتها هي بالزواج في ذاته ، وأنه ليس ثم فيما عدا ذلك شيء خاص .

وكأنما أرادت أن تحول الحديث عن مجراه ، فقالت وهي تضحك : « قل لي من تنوى أن تحب ؟ »

قال : « من تظنينها جديرة بحبي ؟ اختاري لي »

قالت : « هل تريد أن تتزوج ؟ »

قال : « يا المرأة ؟ لا تفهم إلا هذا الاحتكار الممل ... كلا ... أريد أن أحب ... فاختاري لي كما يختار الصاحب لصاحبه الجياد التي يظنها رابحة في السباق »

قالت وهي تضحك : « مرسى ... جعلتنا جياداً ... »

قال : « لا تهربي ... إنك تعلمين أني لا أعني هذا ... فاختاري ... أريني ذوقك »

فانقد وجهها وقالت : « وهل أنا أعرف ! »

ونهض ليرقد دقائق ، فقد كان والداها في طنطا يزوران السيد البدوي ، ففي البيت متسع له ، وخطر له وهو يمضي الى غرفة من غرف النوم ، وهي تمشي أمامه ، أن في وسعه أن يحبها ... فان لها لفتنتها ، وإن كانت دون اللينور — ايللي كما اعتاد أن يسميها — آه لماذا ترك ايللي وتخلى عنها ؟ حماقة ! لا خير في الندم الآن ... ونام وهو يفكر في كريمة وفي إمكان ... ولكن كيف يمكن ! كيف يمكنني ؟

وأيقظته ، كما رجا منها أن تفعل حوالى الساعة الخامسة مساء ، فمد يده اليها فأنهضته ثم أراح كفه على كتفها وهو يقف وأحس أن يده انحدرت عفواً الى صدرها ، ولمست ثديها الناهد ... فشعر بالدماء تغلي في عروقه ، ودار رأسه فجذبها اليه ، وضمها وقبلها ... قبل فمها هذه المرة

وقالت وقد تخلصت من عناقه : « احذر أن تغلط مرة أخرى ... لست لك ... »

فسألها : « ولماذا لا تكونين لي » وخطر له أنها تقول له ما قاله هو لايللي ؟ يا للسخرية !

قالت : « أنت تعرف ... »

قال : « أتكرهين أن أحبك ؟ »

قالت : « هل تحبني ؟ »

قال : « من يدري ! ربما كنت أحبك ... لعلي كنت أحبك طول الزمن الذي أتوهم فيه أني لا أحب ... لعل هذا كان السبب فيما أحس أني أعانيه من الشقاء ... شقاء الذوى والجفاف ... سأرى الليلة ... غدا أقول لك هل أحبك أو لا أحبك »

قالت : « لماذا تهكم علي ؟ »

قال : « والله إنى لصادق ... لست أعرف نفسى ... تعالى ... »

قالت : « احذر ... ألم أقل إنى لست لك ؟ ثم ان زكى قادم »

قال : « أهذا كل ما تخافين ! »

قالت : « كلا ... لست لك ... فلا تحرجنى »

قال : « قبلة واحدة »

فهزت رأسها وقالت : « إنى آسفة ... متألمة لك ... أشعر أنك غير سعيد ... ولكن ماذا أصنع اعذرنى »

قال : « أشكرك على هذه . صدقت . لست لى معذرة »

قالت : « الآن خذ القبلة . أصبحت تستحقها . »

فقبلها . لا قبلة خفيفة بل بنهم وشره ، فقالت وهى تنأى عنه وتتحسس شفتيها : « أعوذ بالله ... ورمت شفتاى ، ما هذا ؟ »

قال : « اعذرينى ... صرت كالجمل الذى يدخر للأيام المقبلة .. أيام القحط والمحل والجوع .. »

ومضى بهما فى ذلك المساء إلى السينما ، وكانت جالسة بينه وبين أخيها ، فكان يهمس فى أذنها من حين إلى حين ، كأنما كان يفترض علمها بما هو دائر فى نفسه من الخواطر : « صدقت . لست لى » فكانت تبتسم ولا تقول شيئاً . وماذا عسى أن تقول ؟. ثم همس : « هل أنت ساخطة على ؟ »

قالت : « كلا . بل أنا متوجعة لك . ومتعجبة أيضا : أظن أنك محتاج إلى راحة »

قال : « صدقت . إنك حكيمة جداً . وقعت على السر . اهتديت إلى أصل الداء . الراحة ؟ كيف السبيل اليها وأنا كالبغل المشدود إلى الساقية وكلما ونى أو وقف صاح به صاحبه : « عا ... عا » أو ألهب ظهره بالسوط ... ليس لى سيد ... ولا أسمع أحداً يصيح بى ليستحثنى ... ولكن السوط فى يد الزمن ... ووقعه على روحى ، لا على الجلد ، ولو كان على الجلد لهان . نعم يجب أن أرتاح ... أقول لك ... سأذهب الى لبنان وآخذ زوجتى وأبنائى معى ... ليتك تجيئين معنا ... إذن لتم هنائى ... هل تستطيعين ؟ »

فهزت رأسها فقال : إذا كان كل ما يمنعك ... فهذا لا قيمة له » ولم يصرح

فقالت : « كلا ... يجب أن أكون بعيدة عنك ما رأيت منك اليوم يوجب الحذر من قربك ... أنت كالنار ... ولست أريد أن أحترق »

قال : « صدقت ... وأنا يجب أن أخمد نارى ولماذا ؟ ولكن لماذا أخنق نفسى ؟ »

قالت : « يجب ... إنى كبنتك ، ولكنى أعرف أن هذا هو الواجب وألح عليك أن تلتزمه

فأحس أن خنجرا نفذ الى قلبه ... كبنته ... وارتفعت يده إلى شعره كأنما ظن أنه فى وسعه أن يرى الشعر الأبيض فى الظلام بيده ! ! كبنته ؟ ؟ لولاهذه الشعرات البيضاء ؟ ؟ أوه !.. ما الفائدة ؟ ما الفائدة ؟

وظلت كلمتا « ما الفائدة » تدوران فى نفسه ، ويرددها بلا صوت ، وهو راقد فى ليلته تلك ، على سريره إلى الفجر حتى غلبه النوم !

ابراهيم عبد القادر المازنى

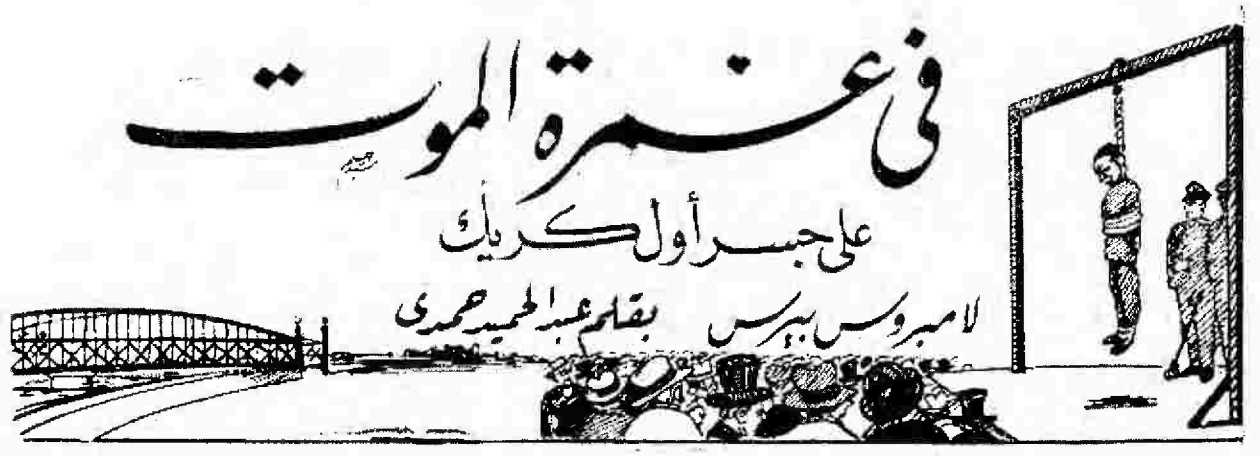

فى غمرة الموت

على جسر أول كريك

لامبروس بيرس بقلم عبد الحميد حمدى

— ١ —

على جسر للطريق الحديدية فى آلاباما الشمالية ، وقف رجل ملوى الساعدين إلى ما وراء ظهره ، مشدود الوثاق عند المعصمين ، وقد أحيط عنقه بحبل مهوى معقود إلى صليب من الخشب المتين فوق رأسه ، وقد تدلت نهاية الحبل إلى مستوى ركبتيه . وكانت عيناه شاخصتين إلى الماء السريع الجريان تحت عشرين قدماً من موقفه

وفوق الكتل الخشبية المرتكزة عليها القضبان الحديدية ، وضعت ألواح من الخشب غير مثبتة أعدت ليقف عليها الرجل وجلادوه ، وهم جنديان من جنود المراسلة فى جيش الاتحاد يقودهما ضابط صف يغلب أنه يعمل فى الحياة المدنية نائب عمدة ، وعلى مسافة قريبة فوق هذه البسطة الموقتة نفسها وقف ضابط مسلح ، فى ملابس الجندية التى تدل على أنه قائد مائة ، وعلى كل من مدخلى الجسر وقف جندى يحمل بندقيته فى وضع عمودى أمام مقدمة الكتف اليسرى ، وقد ارتكزت قاعدتها على الزند الممدود أفقياً على الصدر — وهو وضع رسمى غير طبيعى يرغم الجسم على التصلب فى وقفة متعبة

ولم يكن يبدو من هيئة هذين الحارسين أن من مهمتهما معرفة ما يجرى وسط الجسر ، فقد كان كل عملهما أن يسدا الممر الخشبى المعد لعبور الماشين على الأقدام ، ولم تكن العين لتقع وراء أحد هذين الحارسين على شبح إنسان ، فقد كان الخط الحديدى يتجه مستقيما إلى الغابة مسافة مائة ياردة ثم يلتوى ويختفى عن الأنظار ، وما من شك فى أن كان هناك وراء ذلك لمخفر أمامى ، وفى الضفة الأخرى من النهر فناء مفتوح ، يحيط به سور من جذوع الشجر العمودية ، التى تستعمل المسافات الضيقة بين أحدها والآخر فتحات لاطلاق البنادق من خلالها ، وفى البناء كوة واحدة تبدو منها ماسورة مدفع من النحاس يتحكم فى الجسر ، وفى وسط الطريق بين الحصن والجسر . وقف النظارة الذين سمح لهم بمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام — ولم يكن هؤلاء النظارة غير صف واحد من جنود المشاة ، وقفوا موقف الاستعراض ، ارتكزت بنادقهم على الأرض ، ومالت مواسيرها قليلاً إلى الوراء مستندة إلى أكتافهم اليمنى بينما أيديهم مشبكة حول سوق هذه البنادق ، ووقف إلى يمين الصف ضابط برتبة ملازم ارتكز سن سيفه على الأرض ، وقد استندت يده اليسرى إلى اليد اليمنى . وفيما عدا الأربعة الرجال ، القائمين فوق الجسر بمهمة التنفيذ ، لم يكن أحد ليتحرك ، بل وقف الجميع ينظرون إلى الجسر ثابتين كالصخور الجامدة ، أما الحارسان اللذان يواجهان ضفتى النهر ؛ فقد

كانا أشبه بتمثالين يزينان مدخلى الجسر

ووقف الضابط قائد المائة مشبك الساعدين على صدره يرقب فى صمت عمل مساعديه ، والحق أن الموت لذو مقام عظيم ، إذا أقبل ، معلناً عن قدومه ، استقبل بمظاهر الاحترام الرسمية حتى لدى هؤلاء الذين ألفوه ، والسكوت والجمود من مظاهر الاحترام فى القانون العسكرى

وكان الرجل الذى اتخذت هذه الاستعدادات لاعدامه ، لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ، فيما يبدو من مظهره ، تدل ملابسه وهى ملابس المزارعين ، على أنه من الرجال المدنيين ، جميل تقاسيم الوجه مستقيم الأنف ، ثابت الفم ، واسع الجبين ، قد سرح شعر رأسه الأسود الطويل إلى الوراء متدلياً خلف أذنيه ، إلى ياقة سترته الحسنة القطع ، ذا شاربين ولحية مدببة ، واسع العينين أسودهما ، فى نظرته رقة يصعب أن يراها الانسان فى عينى الرجل الذى وضع عنقه فى خية الجلاد ، وكان واضحاً أن ذلك الرجل لم يكن من القتلة السفاكين ، على أن قانون العسكرية المطلق كفيل باعدام أى صنف من أصناف الناس دون استثناء للسادة من ذوى الخلق الكريم

وإذ تمت معدات التنفيذ وثب الجنديان المحيطان بالمحكوم عليه عن موقفيهما وسحب كل منهما لوح الخشب الذى كان واقفاً عليه ، والتفت ضابط الصف إلى قائد المائة ، فحياه ووقف وراءه مباشرة . وفى هذه اللحظة ترك الضابط مكانه ووقف على مسافة خطوة من مصطبة الاعدام . وكان من أثر هذه الحركات المتتابعة أن ترك المحكوم عليه وضابط الصف واقفين على طرفى لوح واحد من الخشب ، مركز على ثلاثة من أربطة الجسر الحديدية ، وكان موقف المحكوم عليه قريباً من رباط رابع ولكنه غير متصل به . وكان ثقل قائد المائة الذى حل محله ثقل ضابط الصف هو الحافظ التوازن اللوح الخشبى والحائل دون سقوطه ، فمتى أشار القائد لضابط الصف إشارة التنفيذ ، وتنحى هذا عن موقفه مال اللوح بالمحكوم عليه فيسقط الرجل بين رباطين من أربطة الجسر . وهكذا كانت الاستعدادات التى اتخذت لاعدام الرجل بسيطة فعالة ، ولم يكن وجهه قد غطى ولا عيناه عصبتا . ونظر الرجل لحظة إلى موقفه المزعزع ، ثم شخص ببصره تائهاً إلى الماء المضطرب فى عنف جنونى تحت قدميه ، فاسترعت انتباهه قطعة من الخشب ترقص فوق الماء ، فتبعها نظره وهى تسير مع التيار . فما كان أبطأ حركتها فى تقديره ! ويالله من نهر بليد مكسال !

أغمض الرجل عينيه وحصر تفكيره الأخير فى امرأته وأطفاله ، ولكن الماء الذى ألقت عليه شمس الصباح وشاحها الذهبى ، وأثر الضباب المتبدد فوق الماء على مسافة غير قريبة من موقفه ، والحصن والجنود ، وقطعة الخشب العائمة فوق الماء ؛ كل هذه المرئيات التى وقع عليها نظر الرجل التعيس قد شتت تفكيره ، فلم يستطع حصره كما أراد — على أن عاملاً جديداً للاضطراب قد أضيف الآن إلى هذه العوامل ، فقد شوش تفكيره فى أعزائه صوت لم يستطع تجاهله ولا فهمه ، صوت معدنى ، حاد . واضح ، أشبه بصوت ضربات مطرقة الحداد على السندیان ، فرنة الصوتين واحدة ، ولقد حار فى تعرف مصدر ذلك الصوت ، ولم يستطع أن يتبين إن كان هذا الصوت قريباً منه أو بعيداً عنه — فقد خيل إليه أنه قريب وبعيد فى وقت

واحد . وكان تتابع الدقات منتظما ، ولكنه كان بطيئاً كدقات ناقوس الموت . وكان ينتظر — وهو لا يدرى لماذا — هذه الدقات بصبر فارغ وتنبه شديد . وكانت الفترات بين الدقات بعضها وبعض قد بدأت بالتدريج ، وأصبح تباطؤها مما يسبب الجنون ، فقد اصطحب هذا التباطؤ الشديد بازدياد الضربات قوة وحدة ، فكانت تؤذى أذنيه كما لو كانت وخزات سكين ، ولقد خشى الرجل أن يصيح متوجعاً . ولم تكن هذه الدقات غير دقات ساعته !

وعاد الرجل ففتح عينيه فرأى الماء تحته مرة ثانية . وقال فى نفسه : « لو استطعت أن أخلص يدى من قيدها لكان من اليسور أن أطرح الخية عن عنقى وأن أثب إلى الماء . وعندئذ أستطيع أن أتقى طلقات الرصاص بأن أغطس تحت الماء ، وإذا سبحت بقوة وصلت إلى الشاطئ واندفعت إلى الغابة ثم وصلت سالماً إلى دارى . وأحمد الله ألا يزال بيتى بعيداً عن خطوطهم ، وما زالت امرأتى وصغارى الأعزاء وراء أبعد نقطة وصل إليها العدو الغازى فى تقدمه »

وبينما كانت هذه الأفكار ، التى نصورها هنا كلمات تندفع إلى رأس المحكوم عليه بدل أن تخرج منه ، أشار قائد المائة إلى ضابط الصف ، فوثب الضابط متنحياً عن موقفه

— ٢ —

كان بيتون فاركوهار مزارعاً ميسر الحال من أسرة قديمة لها فى نفوس الناس مكانة سامية من الاحترام . وإذا كان الرجل مالك رقيق ، وكان كثيره من ملاك الرقيق سياسياً ، فقد كان بالطبيعة من طلاب الانفصال الأصليين ومن أشد الناس تحمساً لقضية الجنوب . ولقد حالت ظروف ، لا ضرورة لشرحها هنا ، هى ظروف طبيعية متكررة مستبدة ، دون اشتراكه مع الجيش الباسل الذى حارب المواقع الخطيرة التى انتهت بسقوط كورنث وقد ثارت نفسه لهذا التراجع المعيب ، وتطلع إلى الفرصة التى يستخدم فيها نشاطه فيحقق أعظم ما يطمح إليه الجندى من الصيت الحسن والتميز ، ولقد كان يشعر فى نفسه أن هذه الفرصة ستأتى كما تأتى لكل إنسان فى زمن الحرب ، وفى الوقت نفسه فعل كل ما فى مقدوره أن يفعل . فلم يكن ليأنف من أداء أى عمل بالغة ما بلغت تفاهته لمساعدة الجنوب ، ولم يكن ليتردد أمام أى خطر يمكن أن تنطوى عليه أية مغامرة إذا كانت مما يتفق وخلق الرجل المدنى الذى هو جندى فى قرارة نفسه ، والذى أغرته عقيدته السليمة وقلة مؤهلاته بأن يأخذ ولو بجزء واحد — على الأقل — من التعليم الصارخ الشر القائل بأن كل شىء مباح فى الحب وفى الحرب

وفى ليلة ، بينما كان فاركوهار وزوجه جالسين فوق مقعد ربتى على مقربة من مدخل دارهما ، دنا من الباب جندى من الفرسان فى ملابس رمادية ، وطلب ماء ليشرب . فكان من أشد بواعث السرور إلى نفس السيدة فاركوهار أن تقدم له الماء بيديها البيضاوين . وإذ دخلت إلى الدار لتحضر الماء اقترب زوجها من الفارس الأغبر وسأله فى لهفة عن أخبار ميدان القتال

فأجاب الجندى : الأعداء مشتغلون بإصلاح الطرق الحديدية والاستعداد لتقدم جديد . وقد وصلوا إلى جسر أول كريك ، وأصلحوه ، وبنوا حصناً على الضفة الثانية . وأذاع القائد منشوراً

علق فى كل مكان ، أعلن فيه أن كل مدنى يضبط ، وهو يحاول العبث بالطرق الحديدية أو جسورها أو أنفاقها أو القطارات ، يشنق فى الحال . ولقد رأيت هذا المنشور بنفسى

— وكم هى المسافة من هنا إلى جسر أول كريك ؟

— حوالى ثلاثين ميلا

— ألا توجد قوة على هذه الناحية من النهر ؟

— لا يوجد غير مخفر للبوليس الحربى على مسافة نصف ميل من الجسر إلى جانب الطريق الحديدى ، وحارس واحد عند مدخل الجسر

فقال فاركوهار مبتسما :

— وإذا فرضنا أن رجلا — وليكن مدنياً وطالب شنق — استطاع أن يمرق ، غير ملاحظ ، من مخفر البوليس الحربى وأن يتغلب على الحارس ، فماذا يكون فى مقدوره أن يفعل بعد ذلك ؟

ففكر الجندى قليلا ثم أجاب :

— لقد كنت هناك منذ شهر ، ولاحظت أن فيضان الشتاء الماضى قد حمل كميات كبيرة من الأخشاب فكدسها بجانب الدعامة الخشبية عند نهاية الجسر ، وهذه الأخشاب الآن جافة ويمكن أن تلتهب كالحطب

وهنا وصلت السيدة تحمل الماء ، فشرب الجندى وشكر لها صنيعها فى احترام شديد وانحنى لزوجها ثم انطلق بجواده . وبعد ساعة ، بعد أن هبط الظلام ، عاد مرة أخرى فمر بالمزرعة متجهاً إلى الشمال فى نفس الطريق التى جاء منها فى المرة الأولى

لقد كان الرجل كشافا فى جيش الاتحاد

— ٣ —

عند ما سقط بيتون فاركوهار تحت الكبرى من الفرجة بين الرباطين ، فقد صوابه ، وأصبح كالرجل الذى فارق الحياة ، ولم يوقظه من هذه الحال — بعد أجيال ، على ما خيل إليه — إلا ألم ضغط شديد حول عنقه ، تبعه شعور بالاختناق ، وأحس بآلام حادة شديدة تسرى من عنقه هابطة فى كل عصب من أعصاب جسمه وأطرافه ، وخيل إليه أن هذه الآلام تومض فى خطوط معينة تعييناً دقيقاً متفرعة فى كل ناحية من نواحى هيكله ، وهى تدق دقاً متوالياً فى سرعة لا يدركها العقل ، وكأنها أنهر من النار الخانقة تصعد بحرارته إلى درجة تفوق حد التصور ، أما رأسه فلم يشعر فيه بشىء غير الاحتقان التام ، ولم تكن جميع هذه الاحساسات مصحوبة بشىء من التفكير ، فلقد طمس جانب التفكير من طبيعته طمساً كاملاً ، ولم يبق له غير قوة الشعور ، وكان الشعور مؤلماً مسبباً للعذاب ، كان يشعر بالحركة ، وأحس بأنه مغمور فى سحابة ملتهبة هو قلبها المتقد ، وأخذ يتأرجح وسط دوائر غير مستقرة ، وهو مجرد من القوة المادية التى يستطيع بها أن يملك قياد نفسه ، فهو يتأرجح دون تفكير وبغير إرادته ، أشبه ما يكون برقاص الساعة ، ثم إذا بالضوء المحيط به يندفع إلى أعلى اندفاعا مفاجئاً مرعباً مصحوباً بصوت تخبط الماء تخبطاً مخيفاً مزعج الدوى فى أذنيه ، ثم إذا كل ما يحيط به بارد مظلم ، وعادت إليه قوة التفكير ، فأدرك أن الحبل الذى يحمله فى الهواء قد قطع ، وأنه قد هوى إلى قاع النهر ، وليس فى ذلك ما يسبب له اختناقاً جديداً ، فلقد كانت الحبة حول عنقه

تخنقه فعلا وتحول دون وصول الماء إلى رئتيه ، أيموت فى قاع النهر مخنوقا بحبل ؟ ! لقد بدت له هذه الفكاهة تبعث على الضحك ! ففتح عينيه فى ذلك الظلام الدامس ، ورأى فوقه وميضاً من النور ، ولكنه لم يستطع أن يتعرف المدى بينه وبين هذا الضوء ، ولامبلغ الصعوبات التى تعترض الطريق إليه ! وكان لا يزال يهبط ، فأخذ الضوء يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى أصبح مجرد بصيص ، ثم عاد الضوء ينمو ويزداد وضوحا ، إذن هو يرتفع مرة أخرى إلى سطح الماء — أدرك ذلك كارهاً ، لأنه كان فى مستقره هـذا يشعر بشىء من الراحة والاطمئنان ، وقال فى نفسه : « ليس من المكروه أن يشنق الانسان ثم يغرق ، ولكننى لا أريد أن أضرب بالرصاص ! لا لن أضرب بالرصاص ، فهذا أمر غير محبوب »

لم يكن المشنوق الغريق مدركا أنه يبذل أى جهد فى سبيل الخلاص ، ولكن ألماً حاداً فى معصميه نبهه إلى أنه كان يحاول تحرير يديه من قيدهما ، فالتفت إلى هذا الجهد كما يلتفت البليد إلى حركة المشموذ غير مكترث للنتيجة ، ويالله من مجهود عظيم ! — يالها من قوة هائلة فوق طاقة البشر ! آه . . لقد كان ذلك جهداً بديعاً ! مرحى ! لقد أفلت الحبل معصميه ، وانطلقت ساعداه حرتين تطفوان فوق الماء ، وقد رأى يديه على جانبيه فى شىء من الغموض ، كأنما يراهما من وراء السحب ، وكان الضوء يزداد انتشاراً لحظة بعد أخرى ، ولم يلبث أن اهتم بحركتهما عند ما اندفعت الأولى ، ثم تبعتها الأخرى واثبتين على الحبل الملفوف حول عنقه ، لقد اختطفتا ذلك الحبل وقذفتا به بعيداً فى كثير من العنف ، وقد أشبه تلويه تلوى ثعبان الماء ، فخيل للرجل أنه قد صاح مخاطباً يديه : « أعيداه مكانه ! أعيداه مكانه ! » فقد أعقب نزع الحية عن عنقه ألم مبرح قاس لم يكن قد أحسه بعد ، كان عنقه يتوجع توجعاً مروعا ، وكأنما النار تلتهب فى رأسه ؛ وقلبه ، الذى كان يدق دقاً ضعيفاً ، وثب الآن وثبة كادت تخرجه من فمه ، وفى الجملة دب الألم والوجع الذى لا يطاق فى كل قطعة من جسمه ، ولكن يديه العاصيتين لم تحفلا بأمره ، فقد أخذتا تضربان الماء فى عنف ضربات سريعة الى أسفل ، مرغمتين الجسم بذلك على الصعود وشعر برأسه يبرز من الماء ، ثم غشيت عيناه بضوء الشمس المشرقة ، وتمدد صدره فى حركة تشنجية ، وابتعلت رئتاه فى ألم قتال كمية كبيرة من الهواء لم يلبث أن زفره متوجعاً !

أصبح الرجل الآن مالكا جميع مشاعره الطبيعية . وفى الحق قد سارت جميع حواسه حادة متيقظة لدرجة غير عادية . فالاضطراب المروع الذى أصاب جهازه العضوى قد ضخم هذه المشاعر وأرهفها : حتى أصبحت تدرك أشياء لم تكن من قبل تدركها

فهو يحس وقع قطرات الماء على وجهه ويسمع أصواتها المتفرقة كلما أصابته . ونظر إلى الغابة على ضفة النهر ، فرأى الأشجار شجرة شجرة ، ورأى أوراقها واهتزاز كل ورقة وحدها — ورأى الحشرات تمشى فوق هذه الأوراق ، رأى الجراد ، والفراش البديع الألوان ، والعنكبوت الرمادى يصل غزله من غصن الى غصن ، ورأى الألوان المتماوجة فى قطرات الندى وهى تتساقط على الملايين

من أوراق الحشيش . وسمع طنين البعوض الذى يرقص فوق زوبعة النهر ، كما سمع ضربات أجنحة فرس البحر وهى تصيب سيقان عنكبوت الماء ، مشبهة المقاذيف التى تلطم الماء على جانبى الزورق لتدفعه الى الأمام — وقد تألفت من جميع هذه الأصوات نغمات موسيقية شديدة الوضوح ، ومرقت تحت نظره سمكة فسمع صوت تصادم جسمها مع الماء وهى تشقه على الجانبين

وطفا الرجل على سطح الماء ناظراً إلى النهر أسفل منه ، وفى لحظة أحس بالدنيا التى يقع عليها بصره وهى تدور حوله فى بطء شديد ، وهو نفسه قد أصبح مركز الدائرة ، ورأى الجسر ، والحصن وقائد المائة ، وضابط الصف ، وجندى المراسلة ، تلك المجموعة من الرجال التى أنفذت فيه حكم الاعدام . لقد كانوا كلهم فى نظره أشباحاً سوداء تعترض المدى بينه وبين السماء الزرقاء فصاحوا وحركوا أطرافهم مشيرين إليه ، ولوح القائد بمسدسه ولكنه لم يطلق النار . وكان الآخرون غير مسلحين وكانت حركاتهم سخرية فظيعة ، وكانت أجسامهم كبيرة هائلة

وسمع فجأة صوت طلق نارى ، وعلى مسافة بضع بوصات من رأسه صدم جسم جامد الماء صدمة شديدة أثارت رشاشه على وجهه ، وسمع صوت طلق آخر ، ورأى أحد الحارسين يحمل بندقيته على كتفه وقد انبعث من فوهتها دخان أزرق خفيف ورأى الرجل الطافى فوق الماء عينى الرجل الواقف على الجسر تحدقان فى عينيه من خلال منظار البندقية ولاحظ أن هاتين العينين رماديتان ، فذكر أنه قرأ يوماً أن العيون الرمادية هى أحد العيون نظراً ، وأن الرماة الذائعى الصيت كلهم من ذوى العيون الرمادية ومع ذلك فقد أخطأ هذا الرجل الرماية

وأصابت دوامة معارضة فاركوهار فأدارته ، فاذا هو يواجه ثانية الغابة على ضفة النهر المقابلة للحصن . فسمع من ورائه صوتاً قوياً منغما عملا يخترق الهواء ، ثم أصاب الماء فى عنف وضجة غطت على ما عداه من الأصوات ، حتى صوت قطرات الماء المدوية فى أذنيه ، والرجل وإن لم يكن جنديا فانه قد ألف المسكرات ، فهو يستطيع أن يفهم دلالة هذه الأغنية القوية البطيئة المضخمة . لقد كان الضابط على الشاطئ يشترك فى أعمال الصياح فهو فى جمود وقسوة ، وفى تلحين هادئ يحاول أن يبعث الطمأنينة فى نفوس الرجال ، فكان ينطق بهذه الكلمات فى وضوح وقسوة وفى فترات متزنة :

« تنبهوا . . تجمعوا . . احملوا السلاح . . استعدوا . . صوبوا . . أطلقوا . . »

فغطس فاركوهار فى الماء ، غطس إلى أبعد ما يستطيع أن يغطس . . فكان دوى الماء فى أذنيه كدوى شلال نياجرا . وعلى الرغم من ذلك سمع صوت الطلقات النارية ، فلما صعد ثانية إلى سطح الماء رأى قطعاً من المعدن اللامع تهبط حوله فى بطء وقد انبطحت فى شكل عجيب ، وقد لمس بعضها وجهه ويديه ، ثم استمرت فى هبوطها إلى القاع ، وسكنت إحداها بين ياقته وعنقه ، وكانت حارة كالجمرة فانتزعها وألقى بها بعيداً

فلما طفا فوق سطح الماء متلهفاً إلى استنشاق الهواء ، أدرك أنه قضى فترة طويلة غاطساً ، فقد سار مع التيار شوطاً بعيداً ، فأصبح أقرب إلى السلامة ، وكان الجنود قد انتهوا من إعادة حشو

بنادقهم ، ورأى بريق الكباسات فى ضوء الشمس وقد أخرجت من فوهات البنادق وارتفعت فى الجو ثم وضعت فى فتحاتها ؛ وأطلق الحارسان النار مرة أخرى دون انتظار أمر ضابطهما ، ولكن بلا طائل

رأى الرجل المطارد كل ذلك من وراء كتفه ، وكان فى هذه اللحظة يسبح فى عنف مع التيار ، ولم يكن رأسه أقل نشاطاً من ساعديه ورجليه ، فقد كان يفكر فى سرعة البرق ، وقال لنفسه معقباً على ما رأى :

« لن يكرر الضابط هذه الغلطة مرة أخرى ، فمن السهل أن يتقى الانسان الطلقات الكثيرة إذا أطلقت معاً ، كما يتقى الطلقة الواحدة ، ولعله قد أصدر أمره للجنود أن يطلقوا أحراراً غير مقيدين بأمره ، فليكن الله فى عونى فما أستطيع الافلات منهم جميعاً »

وعلى بعد ياردتين من مكانه سمع صوتاً مرعباً ردد الحصن صداه ، ثم أعقبه انفجار هائل أثار ماء النهر من قاعه ، وارتفعت فى الجو صفحة من الماء ثم سقطت فوقه فأعمته وخنقته ! لقد اشترك المدفع فى المطاردة ، وإذ خلص رأسه من الماء الذى غمره ، سمع صوت القنبلة الثانية تصفر فى الهواء ، وبعد لحظة اصطدمت بأشجار الغابة بعيداً عنه ، وانفجرت بينها ، فقال فى نفسه :

« إنهم لن يفعلوا ذلك مرة أخرى ، وسيطلقون فى المرة المقبلة قنبلة متفجرة ، فلأرقب المدفع بنظرى ، وسيدانى الدخان ، فالصوت يأتى متأخراً لأنه يتلكأ وراء القذيفة ، وهذا المدفع من النوع الجيد »

وفجأة رأى الرجل نفسه يهوى دائراً حول نفسه كالدوامة ، فالماء ، والشاطئان ، والغابة ، والجسر البعيد ، والحصن ، والرجال ؛ كل هؤلاء اختلط بعضهم ببعض ، وقامت بينه وبينهم سحابة كثيفة . ولم يكن يرى الأشياء إلا بألوانها فقط . فهناك خطوط من الألوان المختلفة مستديرة وأفقية هى كل ما يبدو لناظريه . لقد انغمر فى إعصار مائى لفه وأدار كل شىء فى نظره ، فكاد يفقد الصواب وبعد لحظات وجد نفسه وقد طرحه التيار على الرمل فوق قاعدة الضفة اليسرى للنهر — الضفة الجنوبية فى منحنى يخفيه عن أنظار أعدائه . وكان وقوف حركته المفاجئ وجرح يده عند اصطدامها بالرمال ، هما العاملان اللذان أفاقاه وردا إليه الصواب فبكى مروراً ، ودس يده وأصابعه فى الرمل يقبض منه ويهيل على نفسه شاكراً له بصوت عال فضله عليه ، فكانت تلك الرمال فى نظره ذهباً وألماساً وياقوتاً وزمرداً ، وفى الجملة لم يكن يذكر شيئاً نفيساً الا شبه به ذلك الرمل العزيز

وكانت الأشجار فوق الشاطئ أشبه بنباتات عالية فى بستان بديع ، وقد لاحظ أنها منسقة تنسيقاً جميلا يأسر المشاعر ، واستنشق لها عبيراً منعشاً . ورأى من الفتحات بين سوقها ضوءاً ورديا خلاباً ، وكان الهواء يوقع على أغصانها نغمات أشبه بما روت الأساطير من أنغام قيثارة عولس ملك الريح ، ولم يشعر الرجل بالرغبة فى إتمام هربه فقد أخذ بجمال هذا الموضع الساحر وود أن يستقر فيه الى أن يقبضوا عليه من جديد

ولكن أفاقه من هذا الحلم الجميل صفير الرصاص بين الأغصان فوق رأسه . فقد أطلق المدفعى الفاشل عليه قنبلة الوداع . فهم واقفا واندفع صاعداً الى الشاطئ المائل وغاب بين أشجار الغابة الكثيفة

ومشى اليوم كله مهتديا بحركة الشمس . وخيل إليه أن الغابة تمتد الى غير نهاية ، ولم يقع نظره فى أية ناحية من نواحيها على طريق مسلوكة ، حتى ولا درب من دروب قطاع الأخشاب ، ولم يكن يعلم أنه يسكن فى منطقة موحشة كهذه . ولقد كان لهذا الكشف فى نفسه أثر عجيب !

ولم يأت المساء حتى كان التعب قد أخذ منه ، وكانت قدماه قد أنهكهما المسير ، وقد أوشك أن يهلك من الجوع

ولكن التفكير فى امرأته وأطفاله كان حافزاً له على مواصلة التقدم ، ووجد آخر الأمر طريقا ، هى فيما يعلم الطريق التى توجه الاتجاه الصحيح . وكانت طريقا واسعة مستقيمة أشبه بطرقات المدن ولكنها لم تكن مع ذلك مطروقة ، فلا المزارع تكتنفها ولا على مقربة منها يلوح أى أثر للمساكن وحتى لم يسمع بها نباح كلب ينبئ عن وجود إنسان ، وكانت الأشجار الباسقة السوداء تؤلف جدارين مستقيمين على جانبيها ، يلتقيان على مدى النظر فى نقطة فى نهاية الأفق ، ونظر الرجل إلى السماء من خلال هذه الفرجة التى تشق الغابة ، فرأى مجموعة كبيرة من النجوم الذهبية المضيئة ، ولكن منظرها لم يكن مألوفا له ، وكان تجمعها عجيباً ، ولم يكن يشك فى أن هذه النجوم قد رتبت فى نظام معين يحمل فى طياته سراً سيئ الدلالة ، وكانت الغابة من الجانبين تدوى بأصوات غريبة ، سمع بينها أكثر من مرة كلاما بلغة لا يعرفها

وأحس فاركوهار الألم يشتد فى عنقه فرفع يده يتحسس موضع الألم ، فوجد العنق قد غار غوراً مفزعا ، وكان على بينة من أنه محوط بدائرة سوداء من أثر الحبل الذى ضغطه ، وشعر كأن عينيه قد جحظتا فلم يعد فى مقدوره أن يغمضهما ، وجف لسانه من العطش فحاول أن يخفف من حرارته بإبرازه من بين أسنانه فيلق به الهواء البارد . وما أسرع ما غطت الخضرة الطريق غير المسلوكة ببساط لين سميك ! فلم يعد يشعر بصلابة الأرض تحت قدميه !

لقد نام الرجل — على الرغم من تعبه — وهو سار على قدميه ، ما فى ذلك من شك . وإنه ليرى الآن منظراً جديداً — ولعله قد صحا من نوبة أصابته من هول ما لقى . إنه لواقف أمام باب بيته ، وكل شىء تقع عليه عيناه باق كما تركه ، وكل ما يرى وضاء جميل تحت شمس الصباح المشرقة ، فلا جدل فى أنه قد سرى الليل كله . ولقد دفع الباب فانفتح ومشى فى الممر الأبيض الواسع ، فابصر اهتزاز ملابس نسوية على بضع خطوات منه ، وهذه هى امرأته — فى نضارتها وثباتها وجمالها — تهبط درج الشرفة لتستقبله . ولقد وقفت عند قاعدة السلم تنتظر اقباله عليها ، وقد غمرت وجهها ابتسامة تنبىء عن فرحة يعجز القلم عن وصفها ، وهى فى موقفها هذا مثل للعظمة والسمو غير مقارن . آه ما أجملها ! لقد وثب إلى الامام مفتوح الساعدين ، وهو على وشك احتضانها إذا هو يشعر على مؤخر عنقه بضربة صاعقة ؛ وإذا ضوء أبيض يعشى الأبصار يكتنفه من كل ناحية مصحوبا بصورة كصوت المدفع المصمى — ثم إذا كل شىء مظلم ساكن !

لقد مات بيتون فاركوهار ، وهذه جثته مكسورة العنق ، تتأرجح فى الهواء ، فى تؤدة ، من ناحية إلى ناحية ، تحت دعائم جسر أول كريك

عبد الحميد حمدى

أخذ الناس على أنفسهم أن يتجنبوا سبيل الأخطاء ، ووضعوا نصب أعينهم أن يحيدوا عن طريق الأغلاط ؛ ومع ذلك فكثير منهم من يهوى فى هاويتها ، ويتردى فى حمأتها ؛ بل أصبحت وكأنها من مستلزمات الحياة ، أو من ضروريات البشر ، فقد ترى البعض يتدارك الخطأ قبل الوقوع فى نتائجه ، والآخر يقع فيه ويتخبط فى أشراكه وجرائره

بيد أن الأخطاء كثيراً ما يمحو بعضها بعضاً . وهنا نرى أن القدر يشاء للبعض أن يجنى من وراء ذلك ويربح ... ويشاء للبعض الآخر أن يخسر من جرائه بل ويهلك

* * *

أخذت يد «جراثيل فورلاند» ترتجف ارتجافاً تحت المصباح الكهربائى الموضوع على المكتب ، وهو يترع كأسه من شراب البراندى . وما كاد يفرغ من ذلك حتى تقلصت يده على الكأس وتمتم : لقد انتهى كل شىء ، وعما قريب سأمسى فى حالة أخرى ، آمن بها كل عدوان الدنيا وغدرات الناس ، وهجران الزمن

ثم غيّب يده فى درج المكتب وأخرج مظروفاً وضمه نصب عينيه

لقد طالما عاب عليه رئيسه الكولونيل باكستر إهماله وتوانيه . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل راح يقدح فيه وينال منه أمام زملائه فى الجيش وإخوانه وقد قال له فيما قال . . . . « فورلاند ! . . سوف لا تسلم من ارتكاب الحماقات والأخطاء ما دمت حياً . . إن حياتك المليئة بالأغلاط . مفعمة بالأخطاء منذ أن أدركت معنى الحياة . وإنى أقول لك على رؤوس الملأ : إن دخولك فى رحمة الله أو إلقاءك فى قرارة الجحيم لن يكون ألبتة سوى نتيجة حتمية لاحدى هذه الغلطات . . . أيها الرجل ! إنك تعيش على الأخطاء وستموت من جرائها »

وأطاق فورلاند العنان لأفكاره تحلق فى أجواء السنتين الماضيتين ، وهو يكتب عنوان الكولونيل على المظروف

ونحى المظروف جانباً ، ثم أمسك باحدى يديه الرسالة التى كتبها منذ لحظة . بينما كانت يده الأخرى تعبث فى حركات عصبية مضطربة بمسدس متوسط الحجم

وراحت عيناه تجريان على كلمات الرسالة

« الكولونيل أ . هـ . باكستر

سيدى الكولونيل

أرجو المعذرة يا سيدى إذا وجدتم أن هذا الكتاب لا يمت إلى أعمال الجيش بصلة . وسوف أكون — حينما يصلكم هذا — إما فى جنة الخلد

أو فى عذاب السعير . هناك حيث ينال المرء جزاءه من جنس عمله . وقد فضلت هذه النهاية وآثرتها لأنى عجزت عجزاً بيناً عن إعادة ما امتدت إليه يداى الآثمتان من أموال الفرقة التى وكلت بحفظها . ووُسِدَ إلىّ أمر حراستها والعناية بها . ولا عجب إذا وصلك كتابى هذا قبل اكتشاف الحادث ، فذلك ما عملت على أن يكون

وكان الأمل يشيع فى نفسى حتى الآن ، لظنى أنى لا بد واجد طريق الخلاص الذى ينقذنى من ذلك المأزق الضيق الخانق . وكان مما يغمر نفسى بالأمل ويفيض عليها بالرجاء ، أن يوم اكتشاف الحادث ليس منا بقريب ، بل دونه أيام عديدة ، وليال كثيرة تمكننى من إخفاء الأمر وتسديد العجز وإكمال النقص

غير أن الأيام قد مرت ، والليالى قد تصرمت ، وأصبح اليوم المروع الرهيب قاب قوسين أو أدنى فلا يمر الليل حتى يفيض نوره ، ولا تمضى ساعات إلا ويبزغ فجره وتترجل شمسه . كل ذلك وأنا كما كنت . . . عاجز عن إخفاء الحادث ، أو إكمال النقص الذى أحدثته يداى الملوثتان .. فليس أمامى فى هذه الحال غير السجن والعار .. سوى الخراب والدمار . . وليس ذلك مما أسيغه أو أرضاه

أما عن المبلغ المختلس فقد بلغت قيمته حتى الآن ستمائة جنيه أو تزيد . فهل يدور بخلدك يا سيدى أنه فى وسعى إعادته الى مكانه من الخزانة دون أن يدرى أحد ؟ قد يكون ذلك ممكناً من وجهة نظرك ولكن المعجزات لا تحدث فى عصرنا هذا يا سيدى الكولونيل ، إنما الأخطاء فحسب هى التى يشيع حدوثها ، أو إحداثها إن شئت

وقد تقول : إنه كان فى وسعك أن تقترض المبلغ غير أنى سوف لا أكون معك إبان اكتشاف الحادث ، بل إن روحى هى الأخرى ستأبى أن تحضرك ، لأنى لا أرضى أن تزعجك . ولا أود أن تهيجك

وإنى على يقين أن رحيلى الى العالم الآخر هو خير سبيل تطرق ، وأفضل طريق تسلك ؛ ودعنى أقول لك : وداعا يا سيدى الكولونيل !

المخلص

جرافيل فورلاند
ملازم أول

وغيب الرسالة بعد ذلك فى المظروف وختمه... ثم ألصق عليه أحد طوابع البريد . وكان هو يفعل ذلك حالماً ساهماً ، مفكراً واجماً ، تتناوب وجهه الحمرة والصفرة . يرى يديه ترتجف وأصابعه ترتعش .. ولم يكن ذلك لما يشعر من تأنيب فى الضمير لسرقته ، أو وخز فى النفس لفعلته . بل كان ذلك لأنه لا يستطيع درء الفضيحة عنه ، ولا يمكنه دفع العار بعيداً منه ، ولأنه سيفقد عمله لما أتاه من المنكر ، ولما اقترفه من الجرم

إن السبيل الوحيدة والطريق السهلة المعبدة للخلاص من الفضيحة ، والاغتسال من العار اللذين سيجرهما عليه اكتشاف الحادث . هى رصاصة تخترق رأسه

وأبصر يده ترتجف وهو يشعل إحدى لفافات التبغ ، فأيقن أن تظاهره بالثبات وادعاءه الرزانة والهدوء إنما هما إلا قناعا شفافا يخفى وراءه ما يصطخب فى نفسه ويعج من عوامل الرعب والفزع الهائلة . . وقال بلهجة الواثق يحدث نفسه :

— سينتهى كل ذلك سريعا .. ما هى إلا ضغطة

واحدة لهذا الزناد وينتهى الأمر كله ! بل ويشق على أى أحد أن يلحق بى أو ينالنى

وأخفى المسدس فى أحد أدراج المكتب ، ثم تناول الرسالة ، وغادر البيت ليودعها صندوق البريد ، أى حظ تعس ذلك الذى يلازمه ؟ من له بمن يمد له يد العون فيرد المال المسلوب قبل أن يجردوا الخزانة ؟ أى دهر جائر ظلوم ، هذا الذى يأبى مساعدته وتخليصه من وهدة العار التى تردى فيها ، وهاوية الدرن الذى تمرغ فيه ؟

وتمتم فورلاند يحدث نفسه :

— هاهو ذا آخر يوم من أيام حياتى ، لينقضى تحت سمعى وبصرى

وألقى الرسالة فى صندوق البريد ، ثم كر راجعا الى مثواه

وهناك أخرج المسدس وأدناه من رأسه المحموم ، وزم شفتيه ، وأغمض عينيه ، وراحت أصبعه تضغط على الزناد شيئاً فشيئاً . وكاد كل شىء ينتهى ، لولا أنه سمع وقع أقدام تقترب منه أعقبه سعلة مكبوته ودق خفيف على الباب

ودخل الخادم فألقى سيده منتحيا ناحية من المكتب جالسا فى تراخ وخمول ، أما المسدس فقد كان مختفيا وراء علبة السجاير

— لقد جاءت الآن فقط يا سيدى

فاه الخادم بهذه الجملة فى صوت خافت ولهجة احترام وهو يمد يده الى سيده برسالة مسجلة . . . فتناولها فورلاند بيد مرتجفة ثم أومأ إليه بالانصراف

وفض المظروف فى عجلة واضطراب فسقطت منه الرسالة وهو يخرج حزمة من الأوراق المالية كانت فيه

والتقط الرسالة وأخذ يقرأ ما جاء فيها بعينين جاحظتين

« سيدى : لقد أمرنى عمك جيمس . ب . موبيث أن أرسل إليك هذا الكتاب وبه ألف من الجنيهات ، وهى نتيجة الارتفاع المفاجىء لأسهم شركة آبار البترول ، التى كان لك حظ الاشتراك فيها عند فجر حياتك »

وكانت الرسالة مؤرخة بامضاء مسجل شهير

وأحس فورلاند رغبة ملحة فى أن يرفع عقيرته بالصياح فرحاً وابتهاجاً ، ها هى ذى ألف من الجنيهات فى يده . . ملكه وحده ، لا ينازعه فيها منازع . ولا يشاركه فيها شريك ، سيعيد ما اختلسه فى صبيحة اليوم التالى قبل اكتشاف الأمر دون أن يعلم أحد . . أية معجزة أية خارقة . . أى حظ سعيد ؟ لقد هزأ بالمعجزات وهاهى ذى قد حدثت ، وسخر من الخوارق وهاهى ذى قد حلت

بيد أنه عبس قليلا وهو ينظر الى المال ، لماذا لم يرسله عمه صكا على المصرف ؟ ولكنه عاد وتذكر أن عمه عقت معاملة البنوك ، بل هو لا يثق بها ولا يأمن لها ، إن عادته دواما أن يدفع بالنقد

وتذكر قول عمه له ذات يوم : « اصغ الى يا فورلاند ، إن شركتنا هذه وإن كانت لا تدر علينا أى ربح الآن . فانها ستغدو فى مدى زمن — طال أمر قصر — من أعظم الشركات الدولية فى العالم » إذن فهذه هى أولى الأرباح . . . إذن ستترى عليه المبالغ بعد الآن ...

وفورلاند يعلم عن عمه أنه ما كان يرسل إليه فلسا واحدا ، إذا درى بموقفه الدقيق الحرج ، إنه — أى عمه — يكره أن يرى أحد أفراد الأسرة يتلوث بهذا العار ، ويتمرغ فى هذا الرجس . وتقطب جبينه وهو يفكر . . حسنا ! . . سيعيد المال المسروق فتتبقى له بعدئذ أربعمائة جنيه أو تقل ، وان

يكون هناك ما يشينه ويعيبه أمام عمه أو يحط من قدره . بيد أنه أنّ كوحش حبيس ، وزأر كأسد جريح ، حينما تذكر الخطاب الذى أرسله الى الكولونيل بعنوان بيته فى « إيست كوست » ... لامرية أنه سيتسلمه فى الصباح الباكر

وهب واقفاً فى ذعر .. ما الذى يحق الشيطان جعله يتسرع ويرسل الكتاب ؟ أما كان أولى به أن يتريث الى الصباح ؟ إنه لا يسعه الآن أن يتلافى الأمر أو يتفادى الكارثة . . ولا يمكنه أن يعيد المال ، ويزعم أنها مزحة من مزحه ، أو مهزلة أراد بها التسلية واستطلاع ما قد يحدث . فقد يرتاب الكولونيل فى الأمر . ويجرد الخزانة بعين أخرى .. منتبهة متيقظة . ويميط اللثام عن التلاعب الذى أحدثه بالمال منذ سنتين

وألقى فورلاند المسدس فى درج المكتب . ووضع المال فى حرز حريز . ثم تناول قبعته وغادر مثواه الى صندوق البريد

يا للحظ التعس . ويا للأمل الخائب ! ! لقد أفرغت الرسائل التى فى الصندوق منذ عشر دقائق فحسب

وتراءت له أشباح السجن والفضيحة والعار . فجن جنونه . إن مصيره الآن فى يد رجل ، ولو أنه طيب القلب إلا أنه لا يلين ولا يرحم فى مثل تلك الأمور . ثم إن عمه جيمس لا يتردد فى ازدرائه ولفظه والتبرء منه إذا بلغه خبر جريمته الشنعاء وإثمه الكبير الزرى

وأبصر مكتب البريد يجثم فى نهاية الطريق فهرول إليه . وألفاهم هناك فى عجلة من أمرهم وهم يفرزون الرسائل

وارتدى فورلاند ثوب الهدوء وثبات الجنان وهو يدلى إليهم بأنه أرسل بمحض الخطأ والتسرع خطاباً يود استرداده . ثم وصف لهم الظروف

فأجابه أحد العمال فى رقة مشوبة بحزم أن إعادة أية رسالة إلى صاحبها ضرب من المستحيل وأفهمه أن مصلحة البريد تعد نفسها مسئولة عن الرسائل حتى تصل الى المرسلة إليهم

فأخذ فورلاند يتهدد ويتوعد تارة . ويلين ويتذلل تارة . وكان كل ذلك عبثاً . فلمح إليهم بالرشوة ، ولوح لهم بالمال . وقد رفع المبلغ حتى أضحى يغرى المرء على مخالفة ضميره والاخلال بواجبه ، فنظر إليه العامل نظرة شذراء مليئة بالتهكم والازدراء . ثم أدار عنه وجهه واستغرق فى عمله

فخرج فورلاند يلتمس الهواء البارد الرطب عساه يلطف من هاته النار التى تضطرم بين أضلعه اضطراماً ولعله يخمد ذلك السعير الذى يحتدم فى أحشائه احتداماً

وتراقصت على صفحات ذهنه كلمات الكولونيل التى طالما صوبها إليه معرضاً به قادحاً فيه « إنك أيها الرجل تعيش على الأخطاء وسوف تموت من جرائها »

وفى مأواه غرق فى مقعده وراح يشحذ ذهنه ويكد قريحته لعله يصل الى حل لتلك المعضلة الجديدة أو عساه يجد طريقاً للخلاص مما وقع فيه من الخطأ مرة أخرى

وهبط الليل وانتشرت معالمه السحماء الطاغية على الكون . بل مضى كل الليلة إلا قليلا واقترب الفجر وكاد يبزغ . وفورلاند لما يجد بعد حلا لذلك الاشكال الجديد ، وظل جالساً بأعين جاحظة وجفون مقرحة ، وشعر مشعث وخدين أصفرين غائرين

ستصل الرسالة الى الكولونيل بعد بضع ساعات فيقرأها ويدرك كل شيء

ليس هناك سبيل لمنع ذلك ، على الرغم من أن الخطاب لا يزال فى مكتب البريد . يا لله ! كيف يمنع وصوله ؟ لقد أصبح ذلك مستحيلا ، لأن الكولونيل يتسلم رسائله يداً بيد من موزع البريد . وزأر فورلاند يقول :

— لما ذا لم أتريث قليلا ؟

واختفى فورلاند المرح الطروب ، واحتل مكانه فورلاند آخر وحشى النظرات . كساه اليأس ثوب الجنون ، وأورثه الهم والقلق حالة التوحش

ها هو ذا الخراب يتراءى له كوحش هائل يريد ابتلاعه ، والدمار يهاجمه كجارح جبار يبغى اختطافه ، ومع ذلك كان فى وسعه أن يتفادى ذلك لو أنه لم يخطئ ويرسل ذلك الخطاب

وملأ كأسه من الكونياك ورفعها الى فمه بيد ترتعد فى شدة وعنف ، حتى لقد تساقطت قطرات من الشراب على أرض الغرفة

وانتبه أخيراً من ذهوله فرأى أن الصبح قد تنفس وبزغ النهار وأضاء . فأخذ يضحك بينما كانت أصابعه تعبث بالأوراق المالية عبثها بشيء تافه لا خير فيه

إن الكولونيل ليرفض رفضاً باتاً أن يأخذ منه المال ويودعه الخزانة دون أن يفطن الى الأمر أحد

يا للخراب ! يا للدمار ! لقد خرب ودمر ... كل ذلك من جراء غلطة واحدة . ألا ليته تريث الى الصباح ، أو الى أن أتاه المال من عمه

ونظر الى الساعة فألفاها تشير الى التاسعة

سيستلم الكولونيل باكستر الرسالة حالاً . . . إنه يقرأها الآن ، وربما يكون قد أخطر البوليس

وغرق فى مقعده ثم تمتم :

— السجن ! ! ! . . .

واعتدل فى جلسته بغتة ثم أردف :

— سيأتى البوليس بين لحظة وأخرى . . . أجل ، سيأتى فوراً . ألم ينبئ الكولونيل بالسبب الذى حدا به الى الانسلاخ من هذا العالم والتخلص من الحياة ؟

وعادت وتراءت له أشباح السجن والعار والدمار

وضحك مرة أخرى ثم جلس على حافة المكتب وأفرغ فى جوفه كأسين مترعتين من الشراب

ثم امتدت يده تبحث عن المسدس

— كل ذلك من أجل غلطة ... غلطة واحدة ألا ليتنى تريثت قليلا قبل أن أبعث بهذه الرسالة اللعينة

ثم رفع السلاح الى رأسه المندى بالعرق البارد فى عزم وإصرار

* * *

وعلى عتبة الباب الخارجى راح الخادم يتفرس ويديم النظر فى رسالة سلمها إياه موزع البريد ، وكانت تحمل — فضلاً عن عنوان الكولونيل باكستر — ثلاثة أحرف تومئ إلى أن اسم الراسل مكتوباً على الوجه الآخر من المظروف

وزمجر موزع البريد يقول :

— إنه لا يحمل اسم البلد المرسل إليه ، وقد أعدناه لنقص العنوان . كثير من الناس يقع فى مثل هذه الغلطة ... يا إلهى ! ما هذا ؟ !

« وهذا » هذه كانت طلقة نارية دوت فى سكون المنزل العميق أعقبها سقوط جسم على الأرض

محمد عبد الفتاح محمد
بالساحة والمناجم بينها

— ١ —

كان رتشاران يبلغ من العمر اثنى عشر عاماً عندما لحق بخدمة سيده ؛ وإذا كان ينتمي وإياه إلى جنس واحد فقد صار إليه أمر العناية بابنه الصغير ودار الزمن دورته فانتقل الطفل من بين ذراعي رتشاران ليذهب إلى المدرسة ، ثم إلى الجامعة ، ثم ليتبوأ منصباً في القضاء

ولقد انفرد رتشاران بخدمته طيلة ذلك العهد حتى إذا ما تزوج شمر الرجل الأمين بأنه قد أصبح مولى لسيدين بعد أن كان تابعاً لسيد واحد ، فقد طار من بين يديه ما كان له من سلطان ، ثم استقر على بساط السيد الجديد

غير أن رتشاران لم يلبث أن صرفه عن كل ذلك قادم ثان ، فقد أنجب أنوكول طفلاً ، وملك رتشاران قياد الطفل بلطف عنايته ، وحسن رعايته فكان يلاعبه ويداعبه ، ويلاغيه ويناغيه ، ويلصق خده بخده ، ثم يبعده عنه وقد أضاءت صفحته ابتسامة لطيفة

وسرعان ما استطاع الطفل أن يحبو وأن يجوز باب المنزل ؛ وعند ما كان رتشاران يذهب ليأتي به ، كان يجلجل بضحكات عابثة ، فيأخذ العجب من رتشاران مأخذه ، ويدهش لما يبديه الطفل عند مطاردته من تدبير بارع ، وحكم صائب . حتى لقد كان يقول لسيدته ونظراته تنطق بالروعة والاعجاب : « لسوف يكون ابنك قاضياً يوماً من الأيام . »

وكانت الأيام لا تترى إلا وفي أحشائها أعاجيب جدد ؛ فعندما بدأ الطفل يتعلم كيف ينقل خطاه بعضها في إثر بعض ، رأى رتشاران في ذلك عصراً جديداً من تاريخ البشر . حتى إذ ما جال لسانه في شدقه بلفظ : « بابا » لأبيه ، ولقب « ما — ما » لأمه ، وكنية : « شارنا » لمربيه ، استخف المرح رتشاران ، فراح يأتي بالخبر إلى كل من بصرت به عيناه

وأتى على ذلك حين من الدهر فأصبح على رتشاران أن يظهر عبقريته بأساليب أخرى ؛ فقد كان عليه أن يلعب دور حصان مثلاً ، يثب على أقدامه ويمسك اللجام بين أسنانه . ثم يصارع حمله الخفيف ، ويحتال ليرتمي على ظهره مهزوماً مغلوبا . فان هو فشل فثم صخب وضجيج

وفي ذلك العهد حول أنوكول إلى مقاطعة على ضفاف البادما . فابتاع لابنه — وهو في الطريق إلى كلكتا — عربة صغيرة ، كما اشترى له صداراً من ساتان أصفر ، وقبعة ذات شرائط مذهبة ، وأساور وخلاخيل من ذهب . فكان من دأب رتشاران — كلما خرج في نزهة مع صاحبه — أن يخلعها عليه جميعاً في زهو وكبرياء

ثم أقبل فصل الأمطار فأنشأت السماء تمطر الأرض بشآبيب من هطال . فكأن النهر الجائع أفعوان هائل يزدرد كل ما يصادفه من المنازل والقرى والحقول ، ويغمر بفيض مياهه الحشائش الطويلة المشرفة على الساحل الرملى . وبين الفينة والفينة كان يدوى فى الفضاء صوت ارتطام المياه بالشاطىء ، وكنت تستطيع أن تسمع هدير التيار من بعد قصى ، فاذا اقتربت من النهر هالتك تلك المقادير العظيمة من الزبد يدفعها التيار دفعاً عنيفاً

وغيض ماء السماء بعد ظهر يوم من الأيام فلاح الطقس رائقاً دفيئاً وإن جللت الغيوم السماء . ولم يرض السيد الصغير أن يقبع فى عقر داره فى مثل ذلك اليوم الجميل ، فاستقل عربته الصغيرة ، وراح رتشاران يجره فى توان وتخاذل ، حتى إذا ما شارف مزارع الأرز الممتدة على شاطىء النهر لم يجد أحداً ، فلا فى الحقول أصحابها ولا فى النهر قواربه . وإنما انشقت السحب وراء العباب عن شمس دامية مودعة ، كأنها سفين يحترق فى خضم زخار

ووسط ذلك السكون العميق أشار الطفل بأصبعه إلى الأمام على حين غرة ، ثم صاح : « شارنا ! » فعلى مقربة منهما وسط ردغة مستوحلة كانت تقوم شجرة باسقة من أشجار «الكادامبا»

وكان السيد الطفل يرمقها بنظرات ملؤها الطمع والتشهى ، ففهم رتشاران مراده ، إذ كان قد اتخذ له من أزهارها شبه عربة صغيرة منذ عهد قريب . وما كان أشد سرور الطفل وهو يجرها هنا وهناك ! لقد شغلته اليوم بطوله حتى عن أن يلجم صاحبه ، فارتفع من حصان إلى سائس !

وما كان رتشاران يتواق إلى أن يخوض فى الطين حتى ركبتيه ليحصل لسيده على الزهر ، فأشار بيده إلى الاتجاه المضاد وهو يقول حافزاً مستثيراً : « انظر ! انظر ! أيها الطفل ! انظر هذا الطائر .. » ثم دفع بالعربة بعيداً عن الشجرة وهو يدمدم بأصوات لا معنى لها

ولكن ليس من اليسير أن يخدع طفلٌ قدم له أن يتربع على أريكة الحكم ، ويتبوأ منصة القضاء ! ثم إنه لم ير شيئاً خليقاً بأن يلقى إليه باله ، أو يوجه أنظاره ؛ وإيهامه بوجود طائر خيالى أمر لم يعد فى الامكان

وتشبث السيد الصغير برأيه ، فرضخ له رتشاران ، وقال أخيراً : « حسناً أيها الطفل ، إجلس أنت فى عربتك قرير العين ، وسوف أذهب فآتيك بما شئت من زهر جميل . . ولكن حذار أن تقرب الماء . . ! »

وما كاد رتشاران يذهب حتى هرع الطفل صوب الماء الذى حرم عليه ، كان النهر يعدو ويتدافع صاخباً مزبداً ، فكأن الموجات العصية أطفال آبقة من رتشاران ، مدوية بضحكات ألف طفل سويا .. فتجوب فؤاد الصغير بألاعيبها ، فانسل من عربته يعدو شطر المجرى ؛ وبينا هو فى ذلك إذ بصر بعصا صغيرة ، فانحنى بها على النهر وكأنه يصطاد ، ولكن أرواح البحر كانت تدعوه إليها ، وتناديه أن تعال نلعب ونمرح فى مرتعنا الوسيع

وكان رتشاران قد قطف ملء قبضته زهراً ، وعاد وهو يحمله فى طرف ثوبه ، والسرور يملأ عطفيه ويشيع فى أسارير وجهه ؛ ولكنه عندما بلغ مكان العربة لم يجد أحداً ، فجال بطرفه فيما حوله ، فلم يجد أحداً ، فجمع إلى العربة بصره ، فلم يجد أحداً ، فتجمد الدم فى عروقه ، ودارت الدنيا من حوله ، وكأنه يسبح فى ضباب كثيف ، وانبعثت

من أحناء صدره الكسير صرخة بتراء : « مولاى . . . مولاى . . . مولاى الصغير . . ! »

ولكن أحداً لم يناده : شارنا ، ولا ضحك من من خلفه طفل عابث ، ولا جاوبته صيحة مرح من قلب صغير ، ما طرق أذنيه إلا هدير البحر يعلو صاخباً مزمجراً كما كان ، كأنه لا يعلم مما حدث شيئاً ، أو كأنه ليس خليقاً أن يلقى السمع إلى ذلك الحادث الانسانى العارض ، إلى موت طفل . .

ومضى الليل لا يزيد قلب السيدة إلا خوفاً واضطراباً ، فبعثت بالرجال يجوبون الحى باحثين ، فانطلقوا والمشاعل فى أيديهم حتى شارفوا ضفاف الپادما ، حيث ألفوا رتشاران يجتاح المزارع كأنه صرصر عاتية ، ويصيح صيحة اليأس : مولاى . . مولاى . . مولاى الصغير . . !

وعند ما عادوا به إلى المنزل خر تحت قدمى سيدته صعقا ؛ فراحوا يهزونه ويسائلونه عن مكان الطفل ، فلا يظفرون منه بشىء

وأيقن الجميع أن الپادما قد ابتلع الطفل ، وإن خامرهم شك ضعيف فيما حدث ، فقد شاهد الناس ظهر ذلك اليوم عصبة من النوّر تضرب فى أطراف القرية ؛ وهيأت للأم مرارة الثكل ووقدة الحزن أن تشاران ربما كان السارق بعينه ، فانتبذت به مكاناً بعيداً ، وراحت تبتهل إليه فى ضراعة وتوسل : « رتشاران ! أردد إلىّ طفلى . . أواه ! أردد إلىّ طفلى . . خذ ما شئت من مال وعتاد ، واردد إلىّ طفلى . . . ! »

فكان رتشاران لا يجيب إلا بالضرب على جبينه ، حتى أمرته سيدته أن يغادر المنزل غير مأجور

وأراد أنوكول أن يحاجّ زوجته ليخلصها من من شكوكها ؛ سألها : « ولماذا بالله يقترف مثل هذا الجرم ؟ » فما أجابته إلا بقولها : « من يدرى ! لقد كان الطفل يزين بحلى من ذهب . . . »

— ٢ —

وارتد رتشاران إلى قريته محزوناً كاسف البال ، فلم يك قد نسل حتى ذلك الوقت ، ولم يبق له أمل فى نسل . . إلا أن زوجه أنجبت طفلاً قبل أن ينسلخ على قدومه عام ، ثم قضت نحبها ، وخلفته فريسة حنق عظيم ، يغيظه مرأى طفله ، وتتعاون الظنون أنه ما جاء إلا ليغتصب السيد الصغير مكانته ، ثم أليس من البغى أن يقر بطفله عيناً ، وسادته يتقلبون على القتاد وجداً على ابنهم وألماً ؟ ولولا عمة أرملة وقفت نفسها على العناية بالطفل لما عاش إلا قليلاً

ولكن تحولاً طرأ على عقل رتشاران ثم سكن فيه شيئاً فشيئاً . لقد راعه أن بدأ الطفل يحبو بدوره هنا وهناك ، ويجوز باب المنزل وقد ارتسمت على وجهه علائم الخبث والعبث ؛ وكان هو الآخر بارع الحيلة زكى الفؤاد إن شاء هروبا ، بل لقد كان بنبرات صوته ، ورنين ضحكه ، وعويل بكائه ، ولطيف إيمائه ، يشبه السيد الصغير حذوك القذة بالقذة ؛ حتى لقد كان يخيل لرتشاران وهو يصيح أن سيده الصغير يناديه من وادى الموت السحيق ، ويصرخ باكياً لفقد « شارنا »

وسرعان ما بدأ الطفل يلوك الكلام ، فعرف كيف ينادى « با — با » و « ما — ما » فى لُغاء طفل رضيع ، وانبلج السر أمام عينى رتشاران إذ راح السيد الصغير يناديه « شارنا » بعد أن بعث فى بيته تارة أخرى

ولم يعد يخامر رتشاران أدنى شك فى صحة هذا الزعم ، فقد رأى الطفل نور الحياة بعد وفاة السيد بقليل ، وأيقن على يأس من أن يجىء المخاض زوجه الماقر ، ثم إن القادم الجديد كان يعرف كيف ينادى « با — با » و « ما — ما » ، وكانت

تلوح عليه مخايل قاض فاضل وحكم عادل

وانثالت على رتشاران ذكرى ما ألصقته به سيدته من تهم ، فطفق يناجى نفسه فى ذهول : « واهاً لقلب الأم ما كان كذوباً ؛ إنما أوحى إليها أنى كنت سارق طفلها . . » وما كاد التفكير يؤدى به إلى هذه النتيجة حتى غشيه الندم على ما كان من إهماله ، فاتجه بروحه وجسمه إلى الطفل الصغير ، ومحضه خالص حبه وولائه ، وطفق يتولاه كأنه ابن سرى . فابتاع له عربة صغيرة ، وصداراً من ساتان أصفر ، وقبعة منمنمة بالذهب ؛ ثم صهر حلى امرأته ، وصاغه أساور وخلاخيل . وأبى على الطفل أن يلعب مع أطفال جيرته ، فانفرد برفقته ليلاً ونهاراً . حتى إذا ما كبر ونما وعد فى الغلمان كان الصبى المدلل الأنيق ، يسخر منه أهل القرية وينادونه « بياصاحب السعادة » ! بينما كان آباؤهم يعجبون لشغف رتشاران بالطفل شغفاً بلغ حد الوله والجنون

ثم شارف الطفل سن الدرس فباع رتشاران ما كان له من عقار قليل ، ثم احتمل الى كلكتا حيث اشتغل بالخدمة بعد لأى وعناء ، ثم بعث بابنه إلى المدرسة لا يألو جهداً فى سبيل تثقيفه وإسعاده ، وإن قنع هو بحفنة من الأرز يقيم بها صلبه ، هامساً بينه وبين نفسه : « آه يامولاى الصغير ! يا سيدى العزيز ، لقد أحببتنى فعدت الى فى بيتى ؛ تالله لن ينالك منى سهو ولا تقصير »

ومضت على ذلك أعوام اثنا عشر ، فاذا الفتى قد أجاد القراءة والكتابة ، واستوى على عوده وضاحاً قوياً ؛ معنيا بظاهر وسامته ، معتزاً بشعره يفرقه ويساويه ، ميالاً إلى التأنق والتباهى ، مبسوط الكف لا يقيم المال وزناً . . . حتى لقد أنف أن يقر بأبوة رتشاران له ، لأنه وإن أحبه كأب ، فقد خدمه كتابع . . وزاد الطين بلة أن رتشاران أضمر أبوته لفايلنا ، ولم يكاشف بذلك أحداً

ولقد كانت أساليب رتشاران الريفية موضع سخرية الطلاب من قاطنى الفندق ، بل لقد كان فايلنا يشاركهم عبثهم ما غاب أبوه . وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا كلهم يحبون الرجل الطيب العجوز ، وكان ابنه يحبه أيضاً ، ولكن فى ترفع وكبرياء

وتقدم برتشاران العمر وأوقرته السنون ، فراح مخدومه يعدد أخطاءه ، ويحصى عليه سقطاته ، ويدرك عجزه عن القيام بعمل لم يكن له أهلاً . . . فلقد كان يطوى نفسه على جوع ومخمصة ، ليوفر لابنه أسباب السرور والنعيم . حتى لقد هزل جسمه ، وشحب لونه ، وآده عمله ، وضعفت ذاكرته ، وتبلد ذهنه . ولكن سيده لم يعذره ، إذ كان يريد العمل تاماً كاملاً . . ثم إن ما أتى به رتشاران من ثمن عقار كان قد نفد ، وبقى الفتى متذمراً يطلب الملابس ، ويريد النقود

— ٣ —

وأخيراً صمم رتشاران على أمر . فأعطى فايلنا قدراً من المال ، وقال له : « إنى ذاهب إلى البلد فى عمل ، وسوف أعود وشيكا » . وسرعان ما قصد إلى « باراست » حيث كان أنوكول قاضياً ، وكانت زوجه ما برحت موجعة القلب مكروبة الفؤاد ، وقد ران على قلبها الحزن أن لم تلد من بعد فقيدها ولداً

وذات يوم كان أنوكول يقيل من عناء عمل شاق ، بينما كانت زوجته تدفع الثمن الفادح إلى دجال جوال ، لقاء عقار يشفى من العقم ؛ فسمع فى رحبة الدار داع يدعو بالتحية فبرز أنوكول يرى من القادم ، فما أن عرف فيه رتشاران حتى صفا إليه فؤاده . وطفق يسائله عن حاله ، ثم وعد بأن

يعيده إلى خدمته مرة أخرى . فابتسم رتشاران ابتسامة شاحبة ثم قال : « أريد أن أقدم فروض الطاعة لمولاتى . . » فذهب به إلى داخل المنزل ، ولكن سيدته لم تستقبله بمثل حفاوة سيده فطوى رتشاران عن ذلك كشحا ، وضم يديه وهو يقول : « تالله ما استتاب البادما طفلك ، بل هى جريمتى . . . » فصاح أنوكول : « الله أكبر ! ماذا ؟ وأين هو ؟ ! . . » فأجاب رتشاران : « إنه معى ، وسوف آتيك به بعد غد »

وكان اليوم الأحد اذ القضاء معطل ، فأنشأ الزوجان يرقبان الطريق متربصين ، ينتظران على الجمر قدوم رتشاران ؛ حتى هات طلعته فى الساعة العاشرة ، ممسكا بيمينه فايلنا

وأخذت الزوجة الغلام فى حجرها دون أن تنبس بكلمة ، ثم استخفها المرح فهى ضاحكة باكية تدلله وتلاعبه ، وتقبله فى شعره وجبينه ، وتحدق فى محياه بأعين جائعة ولهى . كان الفتى قسيما وسيما ، فى كساء غطريف ، وثياب غرنيق . فطفح فؤاد أنوكول بالبشر والحب ، ولكنه راح يسأل سؤال كل قاض : « أما لديك من بينة أو برهان ؟ » فأجاب رتشاران : « وكيف أستطيع على ما قلت سوق دليل ؟ إنما هو الله يسمع ويرى ، ويعلم أنى سارق طفلك ، أنا وحدى لا سواى ! »

ولما رأى أنوكول تعلق زوجته بالطفل وضح له عبث السؤال ، فرأى الحكمة فى أن يصدق ويؤمن ؛ فمن أين لرجل عجوز مثل رتشاران بهذا الفتى ؟ ولم يكذبه خادمه الأمين ويختله على غير طائل ؟ ولكنه قال فى حزم وصرامة : « رتشاران ! لم يعد لك فى هذا البيت مقام »

وأجاب رتشاران فى صوت مرتجف ، وهو يضم يديه : وأنّى أذهب يامولاى ؟ لقد وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم يبق فى إلا ذماء يخبو رويداً »

وقالت السيدة : « ذره يبق فى ذلك سرور لطفلى . لقد غفرت له ما تقدم من ذنبه . . . » ولكن ضمير القاضى أبى على رتشاران أن يبقيه ، فقال : « كلا . . . فما إلى المغفرة من سبيل . . . »

وانبطح رتشاران على الأرض يضم قدمى أنوكول صائحا : « ذرنى باقيا يامولاى فما أتيت شيئاً فريا ؛ إنما هى إرادة الله »

وما زاد ذلك أنوكول إلا ثورة خاطر ، فقد ثقل عليه أن يتهم القدر رتشاران ، فقال : « كلا . فما عدت أستطيع أن أعفو أو أطمئن إليك مرة أخرى ، بعد إذ خنت وخفرت ذمامى »

وهب رتشاران فاستوى واقفا ثم قال : « إنى ما اقترفت إثما ولا جنيت ذنبا . . »

فسأله أنوكول : « وإذن فمن فعل ؟ »

وأجاب رتشاران : « إنه القدر »

ولكن هذا لم يكن عذراً كافيا فى عين رجل مثقف ، فظل أنوكول عنيداً صلد الفؤاد

ولما فهم فايلنا أنه ليس ابن رتشاران بل سليل قاض ترى ، غضب وثار أول الأمر ، ظنا منه أنه خدع فى أصله ومنبته ؛ ثم نهنه من غربه أن رأى رتشاران حزينا . فقال لأبيه : « سامحه يا أبتاه ! ودعه يعيش معنا أو فاجر عليه كل شهر نفقة »

ولم يحر رتشاران بعد ذاك جوابا بل طفق يديم إلى وجه ابنه نظرة وداع ؛ ثم صدع لمشيئة سادته ، فخرج وقد اعتركت فى باطنه أشباح شتى

واكتهل الشهر فصدق أنوكول وعده ، وبعث بقدر من المال إلى رتشاران فى قريته ، فرد إليه لأنه لم يكن بين أهل القرية من يدعى رتشاران

شكرى محمد عياد

النقد الذهبي

للكاتب الفرنسي فرنسوا كوبيه

ترجمة محمد العزاوي

حينما بصر « لوسيان دى هيم » بآخر نقد من ذى المائة فرنك يحرفه عصا الغريم تخاذل وانفض عن نضد النرد . وما كان له أن يجلس الى غريمه بعد أن فقد — منذ قليل — ماله الذى سهر على جمعه ليتأهب به لحرب ضروس . وما كان له أن يفعل وقد دارت به الأرض دواراً قعد به عن الوقوف ، فتخاذل ، فارتمى ، فاحتضنه مقعد مريح . ثم انطوى على نفسه وصوب للجمع بصراً غشته سحب الأحزان فهو زائغ العين مهموم ، لقد رأى جما اجتمع لاثم فى هوة أذى ، وموطن فساد ، حيث أفنى شبابا نضر قليلا وذوى . . لقد رأى وجوهاً مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، يزيد انبساطها حظ مؤات وربح كثير . وتلك أخرى تكاد تميز من الغيظ فهى مصفارة ، منقبضة الأسارير ، علا الجبين منها ماء منهمر ، تسايل على الخدود فاستوى على العوارض والأذقان ، فاختلط بدمع الحنق يترى من عيون جحظت خوفاً وطمعاً . . لقد رأى مصابيح شدت للسماء تضفى ثوباً وضيئاً فوق كهف خبيث . قلب وجهه بينها فما بصر إلا بنور ضئيل ينفذ الى ناظريه خلال حجب الغم الفاشية وسحب الحزن المقيم . . . لقد استرد بصره وتراجع قليلاً فانطوى على نفسه وغاب فى أحضان مقعده الصديق ولكن نفسه نازعته للتطلع فأنق السمع ، فبلغ صماخيه رنين الذهب ووسوسة النقود ، يغيبان بين ضحكة نصر مقتضبة ، وحشرجة يأس مغير ، وزفرة مغلوب ختله الحظ فهو حسير كظيم ، وصُعَداء غالب راض حظه بعد أن احتبس فحلت بواديه شآبيب واعدة ورذت ساحته مزنة هاطلة

وذهل عن ذاك بأسره : لقد أقوى جيبه بعد أن كان عامراً يمال يهر العين ويخطف البصر . وخوى وفاضه فما فيه لسد الرمق وإقامة الأود شىء . آماله ولت سراعا فهى غزلان وجلى ، تخاف فتنأى فى دل حبيب الى النفس ، شديد عليها مرير . .

كان الناظر إليه يخاله نائماً وما هو بنائم . ولكنه كان فى سكرة بسبب أمره ، وغشية لا يعللها إلا خلو الوفاض . لقد قلب أمره بين يديه فوجد المجتمع ينبذه — وهو الحسيب ذو الجاه والنشب — فهو طريد ، والعالم يجهله — وهو النسيب ذو الأصل والنسب — فهو شريد ، والأمل يهجره — وهو الطموح ذو المجد — فهو يائس ، والصديق ينكره — وهو الكريم ذو الفضل — فهو وحيد . . . لقد قلب أمره بين يديه فوجد صديقه فى مقعد احتضنه وعطف عليه فى محنته وضرائه — كما احتضنه المداهنون من قبل فى نعمته وسرائه —

فهو عطوف أمين . . . فى موت منجٍ من بؤس ومسكنة لا يرضى بهما نبله ومجده ، وذل ومسغبة يأباهما كرم نفسه وشرف محتده ... فى بندقية أبيه — القائد دى هيم — تحمل إليه ذاك الموت الحبيب كما حملت الملأ فى « زآتشا » الفاصلة موتاً أحمر على يد والده المجيد ...

ألهب التفكير رأسه ، وسعر الهم قلبه ، وكوى الحزن فؤاده ، ثم تداركه السكرى رحمة منه ، فأغفى طرفه فهو نائم سعيد . ولما أن أفاق من غفوته بعد نصف ساعة أو يزيد قليلاً وجد فمه لزجاً من لعاب سال أثناء نومه . فأزاله وتمطى . وكان بحاجة لهواء منعش جديد ينتشل جسمه من وهدة الكسل وذهنه من بلادة وخمود . فقام فى تراخ وكسل . وألفى الساعة لدى الباب تشير — فى هدوء — إلى الثانية عشرة إلا ربعاً . وسار ماداً يديه يريد الباب . وحينذاك أدرك أن ليلته ليلة الميلاد ، فوجم وجوماً . ذلك لأنه تذكر الماضى بعزه وجلاله ، وشعر به يشرف عليه خلال بياض الأيام وسواد الليالى ، يؤنب ويعاتب ، ثم يهوى هادراً متوعداً . تذكر حين الطفولة وما أصاب من عز كثير . وتمثلت له ليالى الميلاد شامتة ساخرة . وادّكر كيف كان يضع حذاءه الجديد على أثفية الموقد بدار أبيه ليلاً ليلبسه فى الصباح الجميل ... تذكر كيف سحب ذيل النعمى ، وخطر فى شفوف الحرير ، وأين هو من تلك النعمى وذاك الحرير . . إنه لصدى تلك الأيام الخوالى وإنه لطريد عز تليد !

وتقدم لوسيان يريد الباب حين اعترض سبيله شيخ عجوز ؛ لقد كان « درونسكى » أحد أقطاب ذاك اللهو الأثيم ، وأشد جبابرته بأساً وشراً ، وأملأهم وفاضاً وجيباً ، وأجشعهم عيناً ونفساً ؛ وهو برغم ذاك شحيح بخيل : لا أثر للنعمة يبدو عليه ، فهو يلبس سترة من قماش « الضامة » لا يكاد يمقتها ويغفل عنها ، وهو بهما قرير العين جذلان

تقدم درونسكى وتمتم ، وشاعت كلماته المبهمة فى أرجاء الحيسة شهباء : هلا أقرضتنى خمساً من الفرنكات يا سيدى ؟ أنظر ! . . إنى لم أبرح الندى لخمسة أيام خلون ؛ وما كان لى حتى أربح أو أجد لى مع عددى — السابع عشر — أمراً ، فهو لهاتيك الخمسة لا يزيد ولا ينقص . لك أن تضحك منى كما يتراءى لك ويحلو ، بل لك أكثر من ذلك : لك أن تقطع يدى إذا لم يرقَ السابعُ عشر سلم الزيادة والتضخم قبل أن تدق الساعة أولى دقاتها الاثنتى عشرة

وما كان للوسيان إلا أن يهز كتفيه ، وقد فعل . إذ أنّى له بما يقيم الأود بله ما يرجو العجوز ! ؟ . . وأزاح الرجلَ من طريقه بيسر واجفة دون أن ينطق بكلمة ؛ ودنا من الباب بقدم واهية يقيمها التجلد ، ويثبتها التحامل ، وأداف إلى البهو الكبير حيث ارتدى سترته وأحكم قبعته فوق رأسه المحموم ، وهبط الدرج بدمع واكف ، وقلب حزين . .

لقد مكث لوسيان بالندىّ أربع ساعات طوال ؛ كان الثلج أثناءها يتساقط على باريس فيتوج هام البيوت ، ويهب الشوارع بسطا من شفوف جميل . . وبدأ لوسيان يسير الهوينى ، والسكون منعقد فوق رأسه متواصل ، والنجوم ينبثق منها نور خافق متضائل ، والبساط أبيض شف عند أمامه دون حائل ؛ ففرح وابتهج لتلك الطبيعة تزّين لأنه تاب

وأصلح من إملاق وفاقة ! وفرح وابتهج لأنه شعر بعبء ثقيل — كان جائعاً في جيوبه — رحل فأراحه ! وفرح أخيراً وابتهج لتلك الراحة تفتح ذراعين مرحبين لتلقفه ثم تغيبه في غيابة الموت ، وبرد الراحة ! . . راحة هي به أولى وأحق ؛ وأولى بجلبها بندقة أبيه المجيد ! . . جعل لوسيان يهيم لغير قصد يرومه أو مكان ينزع إليه . فأنشأ يضرب في شعاب باريس الواسعة . غير أنه لم يسر طويلاً حتى استوقفه أمر أليم نبهه من غشية وأفاقه من غفلة

لقد بصر بفتاة أضناها كد اليوم ونصب السؤال ، مكدودة حيرى فطاف بها الكرى ، وران على قلبها الأمان وحلته السكينة ، فتطلق من همه الأليم وعذابه الواصب . واستكانت إلى الطريق اللاحب واستراحت إليه ، فافترشت طواره ، واتخذت من الجليد دثاراً . . كانت جميلة ساحرة رغم ما ترتديه من أطمار وأسمال ؛ نظيفة ناعمة رغم نومها في الطريق ، بريئة طاهرة فهي بعد طفلة لما تبلغ السابعة

كانت تتوسد ذراعها الأبيض وقد انحسرت عنه أسمالها فهو عار جميل وكان وجهها المشرق الوضيء يطالعك فيبهرك منه جمال هاجع ووديع . أما رأسها فقد مال نحو الأرض في سكينة ودعة . وكان جبينها العريض تكسوه طرة غدافية اللون تدلت من مفرقها واستراحت على أرنبة أنفها الوسيم . وكانت ذراعها الأخرى منبسطة على الجليد كأنما علقت السؤال وأغرمت به ، فهي تنزع إليه أبداً وترجوه دائماً ، وكان قدماها مغمورين في الجليد ، وأخذ حذاؤها الصغير في إهمال عجيب

وأراد لوسيان أن يهبها شيئاً فمد يده لجيبه ، ولكنه ردها حزيناً محسوراً . فقد ادكر أن لا مال معه . ولكن غريزة دفعته فأتى ما أتى من الأمر دون وعي وتدبير . وتقدم من الفتاة يريد حملها وإنزالها بيته حيث الدفء والفرش الوثير . ولكن ما كاد يفعل حتى بهر بصره شيء لامع يقبع في حذائها المخلوع

ودنا بوجه — تشيع فيه الرغبة والرجاء — ليستبين ذلك الشيء ، وما كان إلا نقداً ذهبياً من ذي العشرين فرنكا

لقد وهبه الفتاة كريم . وما من شك أن المحسن سيدة مرت فمنحتها القدر العظيم لتقربه عيناً إذا ما صحت من غفوتها ، وتطيب به نفساً إذا أضحت فتكف عن السؤال ، ويزيد إيمانها بالخير يهمي ليلة الميلاد ! عشرون فرنكا ! ياله من قدر ! أو ليس هو الزعيم بسعادة بضعة أيام ؟! أو ليس هو بشير الراحة لتلك الطفلة اللاغبة !! أو ليس الغنى بذاته لعاثر الحظ ، والنعيم بعينه للساغب المكدود ؟!.. وإنه لعاثر الحظ ، وإنه لساغب مكدود !

لقد كاد يوقظ الفتاة لولا أن ذكر قول ورونسكي العجوز :

— . . . لم أبرح الندى لخمسة خلون . . . بل لك أن تقطع يدي إذا لم يرق السابع عشر سلم الزيادة والتضخم قبل أن تدق الساعة أولى دقاتها الاثنتي عشرة . .

يا لله ! إن هناك فرصة لأمل ! !

وقفز ذلك الشاب — سليل الأصل الكريم والبيت النبيل ، ذو اللقب الحربي والمجد الأثيل — فقد اعتزم في نفسه أمراً ... إنه لم يبلغ الثلاثة والعشرين ربيعاً فهو شجاع جرىء . وهو إذا اعتزم

أمراً لا يقعد به جبن ولا يعوزه مضاء . إلا أنه حين فكر فى الأمر اضطرب جسمه واحمر وجهه ، فقد خالطت الصبوة الحياء فهو فى حيرة من أمره . غير أنه لم يكن يملك لنفسه من الأمر شيئاً . .

لقد ترصد الناس فلم يبصر بشىء يثير الريبة فيوجب الحذر . إن الطريق خال إلا منه وتلك الفتاة فما عليه من بأس أن « يستعير » المال ديناً عليه . وامتدت يده الواجفة « تسلب » الفتاة نقدها العزيز

وحين اطمأن على النقد عدا نحو الندى عجولاً ، ورقى الدرج فى سرعة البرق وبأس العاصفة ، ثم دفع الباب بقبضة قوية آملة حين بدأت الساعة تدق أولى دقاتها الاثنتى عشرة . فرمى نقده على النضد صائحاً

— على السابع عشر !

وفاز السابع عشر . فدفع لوسيان فرنكاته الأربعة والثلاثين « للأحمر »

وفاز الأحمر ! وترك ماله المتضاعف على اللون نفسه ففاز مرة أخرى !

وأقدم على الرهان بالقدر كله مرة وأخرى وثالثة إذ ما عاد يخشى احتباسا لحظه ، أو عثارا لجده . لقد كان يكدس النضار أمامه ، والورق فى سترته . ثم بدأ يشرك « الروليت » مع النرد فكان لها من ماله نصيب رابح دائماً فى تضخم أبداً . وكذلك كان الحظ موافيا مع « الدستة » و « العدد » ومع « العمود »

لقد كان حظا ذهبيا لم يسمع به إنسان !

وقال الناس بسحر ينبعث من عينى الفتى فيأسر الكرة العاجية الصغيرة حين الدوران فى الآلة !

واستطاع لوسيان أن يسترد ماله الذى افتقده أول الليل بعد اثنتى عشرة مرة . ثم فكر أن يسترد أملاك أبيه التى أضاعها فى بضعة أعوام ، فكان يعلى القدر حتى بلغ — مرة — الثلثمائة من النقود الذهبية ذات العشرين فرنكا . لقد أترعت جيوبه بالمال ولما ينقطع فيض النضار فهو يضمه فى جيوب صداره وسراويله ، ويضمه فى منديله وصندوق سيجاره ، وهو يضمه أخيرا فيما يصلح لحمل النضار : كان يلعب دائماً فيربح أبداً . فهو يبعثر ويبذر غير عابىء ولا مكترث ، وهو يتعسف ويجور فيبهظ المغلوبين ويرهقهم ، وهو يرى كل ما تستطيع أن تحتفنه يداه المجدودتان على الخوان فى ثقة واطمئنان ! . .

لقد كان مجدودا سعيدا دون شك ، ومن أدرى منه بجد وسعد ! ؟ نعم ! ولكن خيال تلك الفتاة البائسة كان يقلق باله ، ويخز قلبه ، ويعكر سعده ، فهو ما يفتأ يذكرها ، وهى ما تنفك تتشبح أمامه

— إنها تنام هناك فهى لم تزل وسنى غارقة فى سباتها الجميل ، ساحرة ناعمة كما تركتها منذ حين ، وإنى لأقسم أن لن تحين الواحدة إلا وتكون الفتاة بصحبتى فى طريقى الى منزلى . فلأنزلنها من نفسى منزلة طيبة . ولأنزلن لها عن سريرى لتنام عليه ولأتعهدنها كابنة ، وأرعاها كأخت ، سوف أمهرها مهراً كبيراً . سوف أحبها ، ثم سوف أحبها !

ولكن اقتربت الساعة واصطرع الأمل ، فالحظ يأتيه بغيث منهمر ، وهو لم يشبع بعد أو يرتوى فما ضر لو صبر واصطبرت معه الفتاة ، إن ربحاً من ساعة ليس بكثير . ومضى ربع ثم ثان وثالث ، وهو لا يزال يبعثر ماله فيأتى له بربح وفير ، ولا يزال يتعسف ويجور فيبهظ ويرهق ، ولا يزال ينثر المال

فى ثقة واطمئنان : وأعلنت الساعة الثانية إلا ربعا . إلا أربع عشر . . . إلا ثلاث عشر . وقام صاحب الندى عن « بنكه » الخاسر يقول :

— لقد أفلس « البنك » يا سادة ! كفى لعباً الليلة !

فساء ليل المنذرين ! إذ هم بين خاسر وموتور وحسير . وتدافع الجمع عليه بالمناكب ، ودوا لو ينهشونه ويستردون مالهم السليب ، ولكن لوسيان دفعهم بيديه مفسحاً لقدمه مجالاً بين أقدامهم الزاحفة ومرق من بينهم كسهم مفوق يريد الباب فالدرج وعدا مسرعا شطر الفتاة الوسنى . لقد رآها على نور مصباح الطريق

— حمدا لله فهى ما فتئت هنا ! وأسرع نحوها ثم أمسك بيديها

— كم هى مثلجة تلك الساحرة ! واحتضنها بين ذراعيه فمالت رأس الطفلة للوراء دون أن تصحو فقال :

— ما أجمل نومكم أيها الأطفال الأعزة !

وشدها الى صدره كى يشيع الدفء فيها . وأراد أن يوقظها بقبلة يطبعها على عينها الناعسة ، ذات الأهداب الوطفاء . ولكن .. مالها مسبلتان أبدا ؛ لقد كانت عيناها نصف مغلقتين فشفتا عن عيون صافية . ولكن ... لا حراك بهما !

إنها ميتة وإنها لضحيته ! . بينما هو يكسب الآلاف من الفرنكات ويبعثر الآلاف من الفرنكات كانت « مموّلته » تموت من برد وزمهرير

إنه لم يحتمل الصدمة فأراد الصياح ، ولكن صوته احتبس فى حلقه فآداه ، فأيقظه ذلك من سنة أخذته رحمةً ، ونوم طاف به رأفةً . لقد نام فى مقعده الذى احتضنه أول الليل ، وحل بساحته كابوس ثقيل .

* * *

وبدأ فجر أحد الأيام يفصح فى الشرق خجولا حييا : ضرب خمار السحاب الشف من دونه ، وقام متعثراً فى طيات الليل المدبر ... وبدأ النور يسترق خطاه مترفقاً ، فبدأت الحجرات تضيء من وراء النوافذ

فى ذلك اليوم اغتسل « لوسيان دى هيم » وتناول فطوره وقصد « جماعة أنصار الحرب » ، وأدرج اسمه متطوعاً فى الفوج الافريقى الأول

لقد أصبح الآن لوسيان « ملازماً » بالجزائر صالحا لا يقامر ولا يشرب ، يكسب ما يقوته ويقيم أوده . وفى يوم كان زميل له يسير خلفه فى طريق « كاسبة » المنحدر فرآه يحسن إلى فتاة أسبانية حسناء ، نعم ! لقد كانت حسناء فاتنة ! وكانت تنام فى الطريق !

ودهش الزميل من كرم لوسيان ...

لقد كان بيد الفتاة نقد من ذى العشرين فرنكا . . .

سيد محمد العزاوى
كلية الآداب

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشا

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل الخامس

وكنت وديجنه جالسين ذات مساء قرب الموقد والنافذة مفتوحة ، إذ كنا فى أوائل مارس ، وقد انقطع مطر النهار ، فهبت علينا من الحديقة طلائع عبقات الربيع

وقلت لديجنه : ماذا تريد أن تفعل فى الربيع فاننى أشعر بحاجة إلى السفر ؟

قال : سأفعل ما فعلته السنة الماضية ، فأذهب إلى الضاحية عند ما يحين الزمان

فقلت : أفتريد أن تسير فى كل سنة على وتيرة واحدة

فقال : وماذا تريد أن أفعل ؟

فنهضت فجأة وصحت به : أجل ، قلت حقاً يا ديجنه ... فأنا قد تعبت من كل هذا ، أفما مللت أنت هذه الحياة ؟

فأجاب : كلا !

وكنت واقفاً أمام رسم المجدلية فى الصحراء فضربت يداً بيد بحركة اغتصابية فسألنى ديجنه : ما هذا ؟

فقلت : لو كنت رساماً ولاح لى أن أصور السآمة والضجر لما كنت أرسم رمزها فتاة مستغرقة فى التفكير وفى يدها كتاب

فقال : هل تكيد لأحد هذا المساء ؟

ولم تستوقفنى ابتسامته فقلت : إن هذه المجدلية الغارقة بدموعها لم يزل صدرها ناهداً بالأمل ، ويدها الناحلة التى تسند إليها رأساً لم تزل تعبق بالعطر الذى سكبته على قدمى المسيح ، وهذه الصحراء وما حولها آهلة بأشباح أفكار تتجه بالصلاة إلى الله فقل لى أهذا هو رمز السآمة والضجر ؟

فقال بصوت لا أثر للشعور فيه : ليس هنا إلا امرأة تطالع كتاباً

فقلت : ولكن هذه المرأة سعيدة والكتاب الذى تطالعه جليل

وأدرك ديجنه ما أرمى إليه ، وأنا مستسلم للأسى ، فسألنى عما ألم بى ، ولكننى ترددت فى الجواب فكأن يداً ربطت على قلبى

وبعد صمت قصير قال ديجنه : إذا كان هنالك ما يؤلمك فلا تكتمه عنى وأنت تعلم أننى لك خير صديق

فقلت : أعلم أن لى صديقاً ولكن آلامى لا صديق لها

وألح على فقلت : إذا أعربت لك عما يخالجنى فما يفيدك ذلك وأنت عاجز عن تفريج كربى وأنا أعجز منك . أوتريد سبر أعماق سريرتى ، أم أنت تطالب كلمة أنتحل لك فيها الأعذار ؟

فقال : كُنْ حرَّ الضمير

فقلت : اسمع إذاً ... لقد بذلت نصحك لى فيما مضى ، فاصغ الى الآن كما أصغيت حينئذ إليك

قف أمام أى رجل كان وقل له إن فى الحياة أناساً يمضون أيامهم فى احتساء الخمر وركوب الخيل والضحك واللعب واغتنام فرص اللذات بأنواعها ، فلاشىء يحول دون مضيهم على السبيل الذى اختاروه لأن شريعتهم تقوم على استحسانهم ، ولهم من يشاؤون من النساء لأنهم أغنياء ، ولا هم لهم ، فكل أيامهم أعياد

فاذا لم يكن هذا الرجل الذى تخاطبه من أهل الورع والتقى فانه ليقول لك إن هذه الحياة نهاية ما يتصوره الانسان من سعادة على الأرض

خذ بهذا الرجل واقذف به الى هذه الحياة التى وصفت ، أجلسه الى مائدة قرب امرأة وضع كأساً فى يده وانفحه كل صباح ببذرة من الذهب وقل له : هذه هى حياتك : بينما تكون ناعماً الى جنب عشيقتك تكون خيولك تحفش على مرابطها ، وبينما تكون ممتطيا جوادك يقرع المتنزهات بحوافره ، يكون شرابك يغلى مختمراً فى دنانه . وبينما تحيى ليلك شارباً ثملاً ، يكون أرباب المصارف يعملون على إنماء ثروتك . فما عليك إلا إبداء رغباتك لتنقلب أمانيك حقائق . أنت أسعد الناس ولكن حذار أن تفرط فى الشرب فى ليلة من لياليك ، فتجد جسدك بعيدا عن تذوق ملذاتك لأن كل مصيبة تجد عزاءها ما عدا هذه المصيبة الدهماء . لقد يكبو جوادك فى الغاب وأنت تلهو بالطراد مع رفاقك فتتدهور الى مستنقع ، وإذ تستغيث لا يصل صوتك الى آذان هؤلاء الصحاب وقد أصمهم السكر وجلبة الحبور . حذار أن يروا بك دون أن يعثروا عليك فيتوارون عنك وأنت ترحف بأعضائك المحطمة تحت جنح الليل

لا بد أن تخسر بالمقامرة فى ليلة من لياليك فلتحظ ساعاته السوداء ، فاذا ما عدت إلى منزلك لتجلس أمام موقدك ، حاذر أن تضرب جبينك بيدك وأن تدع الأسى يبالى أجفانك ، وأن تدير لحاظك مفتشاً عن صديق . إحذر بخاصة ألا يجمح بك خيالك الى كوخ ينام فيه زوجان على فراش الطمأنينة وقد اشتبكت أناملى أحدهما بأناملى الآخر حتى فى الرقاد . لأنك ان ترى أمامك على فراشك الفخم الوثير من تسر إليه نجواك سوى المخلوقة الشاحبة التى تتمشق دنانيرك ، وإذا ما لجأت إليها لتشرح صدرك فان يخفى عليها أمرك وسبب حزنك إنها لتشمر بفداحة خسارتك فتذهب دموعك مثيرة فى قلبها الشجون ، لأنها ستشمر من دموعك هذه بخطر يتهدد ثوبها بألا يتجدد والخواتم التى تلمع فى أناملها بأن تسقط منها

حذار ، يا هذا ، أن تفوه أمامها باسم من ربح مالك هذا المساء فلقد تلتقيه هى غداً فترسل إليه لحظات الأغواء من خلال ما يحوطك من خرائب وأطلال

ذلك هو الضعف البشرى ، أيها الرجل ، فهل لك من قوة تحتمل مثل هذا الضعف ؟

إذا كنت رجلا فاحذر السآمة ، إنها لداء عياء ، والموت خير من حى سئم الحياة

إحذر الحب إذا كان لك قلب لأن الحب عار الفاسقين ، وخير لهم أن يصابوا بأى داء من أن يصبحوا مهزلة فى أعين أمثالهم المقدرين لكل خليلة

ثمناً . وليس المرأة التي تبيع نفسها أن تحتقر أحداً إلا الرجل الذي يحبها ...

إذا ما شعرت بالحب يجتاح قلبك فاحذر أن ينم وجهك عليه ... فما يتخلى عن درعه إلا الجندي الجبان . وعلى الفاسق ألا يظهر تعلقه بشيء لأن ظفره قائم على أن لا يمس شيئاً إلا بيد من رخام دهنت بالزيت كيلا يعلق عليها أثر مما تقبض عليه

إذا كنت نزقاً وأردت أن تحيا ، فتدرب على القتل لأن في الخمر ما يقودك الى المشاغبة ، وإذا كان لك ضمير فاحترس من الساعة التي تلقي فيها رأسك على الوساد ، لأن الفاسق إذا ندم بعد فوات الأوان يشبه مركباً اخترقته مياه البحر فليس له عن موقفه متقدم ولا متأخر ، فلا يسير الى العباب ولا يعود الى البر وعبثاً تدفعه الرياح إذا جذبته اللجج ، إنه ليدور على نفسه ويغور . .

إذا كان لك جسد فاحذر الأوجاع ، وإذا كان لك روح فاحذر القنوط ، بل احذر الناس بأسرهم ، أيها الشقي ، فانك ما دمت سائراً في طريقك التي تخيرت لتشهد سهلا فسيحا تدور عليه حلقات الراقصين متماسكات متتابعات كدوائر الأزهار ، ولكن ما تشهده ليس إلا سراباً خادعاً في قاحل الصحراء

إن الناظرين الى مواطىء أقدامهم يعلمون أنهم ينسحبون على صراط ممتد فوق نهر عميق ولكم تهاوى إليه السائرون فضمهم الى سكونه فانطبقت عليهم صفحته الهادئة دون أن تتجهم

حذار أن تزل بك القدم فان الطبيعة لتتراجع عنك بما في أحشائها من حياة فتنكرك ، حتى الأشجار الباسقة وأماليد الغاب

لقد خرقت شريعة أمك فأنكرك كل رضيع من إخوتك في الحياة

إحذر غضب الله ، أيها المنفرد ، لأنك تنتصب أمام وجهه الكريم متحجراً كالصنم على قاعدة إرادتك المتمردة فما تفدق السماء عليك رشاشها إلا لتفت من أعضائك وتذيب هيكلك ، وما يهب الهواء عليك لينفحك بقبلة الحياة وهي قبلة التوحيد بين جميع الاحياء ، بل يعصف عليك عصفاً ليهزك ويقوضك تقويضا . إن كل امرأة تضمها إليك ستجتذب شرارة من قوتك دون أن تبادلك شرارة من قوتها . فما أنت إلا حقيقة تترامى متهالكة على أشباح وحيث تسقط نقطة من عرق جبينك تنبت شجرة من مظالات القبور

مت ، فما أنت إلا عدو لكل من يحب ولكل ما يحب ... إنقبض على ذاتك في عزلتك وانفرادك ولا تتوقع أن تبلغ نهاية عمرك ، إذهب ولا تبق منك على الأرض نسلا تستبقي فيه للحياة دماً من دمك الفاسد

تبدد كالدخان ولا تحرم بظلك حبة القمح النابتة من نور الشمس . »

وما انتهيت من هذا الخطاب حتى استلقيت على المقعد وقطرات الدموع تتساقط من عيني ، وأنا أعول قائلا : أليس هذا ما قلته لي أنت يا ديجنه ؟ أفما كنت تعرف هذا من قبل ؟ وإذا كنت عرفت فلماذا لم تتكلم

وكان ديجنه مشبكا أنامله ، وقد علته صفرة

الموت وانهمر الدمع من عينيه

وساد بيننا السكوت . وقرعت الساعة فذكرتني فجأة انني في مثل هذا اليوم وهذه الساعة منذ سنة تكشفت لي خليلتي مخادعة خائنة

فصحت بديجنه : أتسمع دقات هذه الساعة ؟ أتسمعها ...؟ إنني لا أعلم بماذا تنذرني ؟ ولكنني أشعر انها ساعة رهيبة سيكون لها شأنها في حياتي

وكنت أتفوه بهذه الكلمات وأنا مسلوب الارادة مضعضع الحواس ، وفتح الباب فجأة في تلك اللحظة نفسها ، ودخل القاعة أحد الخدم ، فأخذ بيدي وانتحى بي إلى زاوية وأسر إلى قوله : أتيت لأخبرك ياسيدي بأن أباك على فراش الموت فقد أصيب بالشلل ، ولا أمل للأطباء في حياته

الجزء الثالث

الفصل الأول

وكان والدي يقطن ضاحية قريبة من باريس . وعند ما وصلت إلى المسكن رأيت طبيباً واقفاً أمام الباب فقال لي : لقد وصلت متأخراً ، وكان أبوك يتمنى لو يراك للمرة الأخيرة

دخلت فاذا والدي مسجى وقد فارقته الحياة فقلت للطبيب : أرجوك أن تبعد كل من في الغرفة دعني وحدي فقد كان لوالدي ما يقوله لي ، ولسوف يقول كلمته الآن

وخرج الخدم فتقدمت إلى السرير ورفعت الغطاء عن وجه الميت ، ولكنني ما ألقيت نظري عليه حتى تراميت لتقبيله فأغمي عليّ

ولما أفقت على فراشي في غرفة أخرى سمعت من حولي يقولون : لا تدعوه يذهب وإن أصرّ . انتظرت حتى رقد جميع من في البيت وأخذت مصباحاً وتوجهت إلى غرفة الميت فوجدت فيها كاهناً فتياً جالساً قرب السرير ، فقلت له : لا حق لك بأن تنازع ولداً ليلة أخيرة يقضيها قرب أبيه . لاأعلم ماذا قيل لك بشأني غير أنني أرجوك أن تدخل إلى الغرفة المجاورة وأنا أتخذ على عاتقي كل تبعة قد تقع عليك

ذهب الكاهن فقعدت مكانه ومددت يدي أكشف المرة الثانية عن هذه اللامح التي قضى علي بألا أراها بعد

وخاطبت الميت قائلاً : ماذا كنت تريد أن تقوله لي يا أبي ؟ لقد أدرت لحاظك مفتشاً عني قبل انطفاء عينيك ، فما كانت فكرتك الأخيرة ياترى ؟

وكان والدي يكتب مذكرات يدون فيها وقائع أيامه ، وكان كتاب هذه المذكرات مفتوحاً على الخوان فقدمت إليه وجثوت فاذا على الصفحة الأخيرة هذه الكلمات :

(الوداع يا ولدي . . . أحبك . . . وأموت)

جمدت دموعي واختنقت زفراتي ، فكأن يداً شدت على عنقي وختمت على فمي . فوقفت شاخصاً بالميت المسجى أمامي . وما كان في حياته يجهل ما كانت عليه حياتي ، فقد كان يشكوني إلى نفسي ويوجه إلي التقريع ، وما اجتمعت به مرة إلا وحدثني عن مستقبلي ، وتناول باللوم ما تى شبابي . ولكم أنقذتني نصائحه من تهلكة ، فقد كان لارشاده

قوته المستمدة من فضيلته لأنه كان مثال الدعة ومكارم الأخلاق . وقد كان يتمنى لو يراني قبل موته ليردني عن السبيل الضلول الذي توغلت فيه ، ولكن المنية عاجلته فلم تدع له إلا كلمة واحدة يقولها ، فقال : إنه يحبني ...

الفصل الثاني

وكان قبر والدي يحوطه سور من خشب ، لأنه أراد أن يدفن في مقبرة القرية ، فكنت أذهب كل يوم لأقضي ساعات على مقعد صغير كان موضوعا داخل السور ثم أعود إلى المسكن الذي كان يقطنه ولا رفيق لي إلا خادم واحد

مهما فعلت أحزان الشهوات في النفوس فما هي إلا آلام حياة ، وهل تقاس آلام الحياة بأحزان الموت ؟ إن أول ما تبادر إلى ذهني حين وقفت إلى جنب سرير والدي الميت هو أنني ولد جاهل لا يعلم شيئاً ولا يعرف شيئاً ، وعند ما ربط الأسى على قلبي شعرت به كالم في جسدي حتى كنت أتلوى كمن أفاق من غفلة فشعر بجهله وأحس بآلامه

ومضت الشهور الأولى علي في الضاحية وأنا ذاهل لا أذكر الماضي ولا أبالي بالمستقبل . فما كنت أشعر أن من عاش فيما مضى كان إياي ، وما كان ما يستولي علي في ذلك الحين ليشبه آلام اليأس الثائر التي كانت تقبض علي من قبل ، بل كان نوعاً من الجمود والتعب فكأنني كرعت السآمة فوجدت لها مرارة تتشنج لها أحشائي

وكنت أجلس طيلة نهاري إلى كتاب أتصفحه ولا أقرأ ، بل أنظر إليه لأعيش في أجواء تشبه العدم لأنني كنت فقدت التفكير فاستغرقت في سكينة مطبقة . فان ماصدمت به كان من العنف والاستمرار على قوة نالت مني حتى غدوت كالمسلوب تنقر أعصابه فلا تجيب

وكان خادمي لا ريف شديد التعلق بوالدي ولعله كان خير الناس بعده في تقديري ، وكان من سنه ومن قده ويلبس ما يهبه إياه من أثوابه ، وقد وخط الشيب شعره بعد أن قضى عشرين سنة في خدمته ، فاقتبس شيئا من حركاته

وكنت بعد المشاء أتمشى في الغرفة فأسمع وقع أقدام خادمي يتمشى أيضاً في الدار وما كان يدخل إلى الغرفة بالرغم من تركي الباب مفتوحاً ؛ ولكننا كنا نلتقي من حين إلى حين فيرى أحدنا الآخر من خلال دموعه ، وهكذا كانت تمر لياليا ، فما كنت أطلب من الخادم إشعال المصباح إلا بعد أن يكون مضى وقت طويل على غروب الشمس

وكان البيت لم يزل على ترتيبه القديم ، فما زحزح الخادم ولا أنا ورقة من موضعها ، فكان مقعد والدي لم يزل قرب الموقد ، وبقي الخوان والكتب والرياش في مواضعها ، وكنت أحترم الغبار الذي علا هذه الأشياء ، وعند ما كنت أرتدي مبادل أبي وأسترخي على مقعده كان يخيل إلي أن في الجدران عيوناً ترمقني بلحظات الاشفاق ، وأنني أسمع همساً يقول : أين مضى الوالد . . فما يتربع على كرسيه الا اليتيم . .

ووردت إلي بعض الرسائل من باريس ، فأجبت الجميع أنني أنوي تمضية الصيف في الضاحية وحدي جريا على عادة أبي ، وبدأت أدرك أن في

كل شر بعض الخير ، وأن الآلام العظمى مهما قيل فيها راحة عظمى ، فاذا ما تكشف القدور لنا من علم غيب الله فانه ليصدعنا لينبهنا من غفلات الحياة ، وإذا ما تكلمت هى أسكت صوتها كل صوت ، وإذا كانت الآلام الموقوتة تجدّف شاكية ظلم السماء ، فان الآلام المستمرة الكبرى لا تجدف ولا تشكو بل تخضع وتتنبه لتسمع وتعى

وكنت كل صباح أقف الساعات الطوال متأملاً فى مشاهد الطبيعة ، وكانت نوافذ غرفتى تطل على واد عميق يرتفع من وسطه جرس المعبد على قبابه ، فكان كل ما يمتد نظرى عليه ينم عن البساطة والفقر ، وما كانت مشاهد الربيع بأزهاره المتفتقة وأوراقه الفضة لتثير فى نفسى ما يتخيله الشعراء من التفجع ، إذ يرون فى انجلاء الحياة ابتسامة ساخرة بالموت ، ولا أرى من يقول بهذا القول إلاّ مغالطاً أو شاعراً بقلب لم يتكامل الشعور فيه

إن من يخرج عند بزوغ الفجر من قاعة القاهرة وقد فرغت يده يمكنه أن يشعر أن بينه وبين الطبيعة عداء وتضالا ، فهو أمام أنوار الشفق كمصباح ليلة فاجرة ... ولكن ما يمكن أن تسر به الأوراق المطلة من غصون الربيع للولد المنتحب على أبيه ؟ وما دموع عينيه إلا أخوات الأنداء ، وهل أوراق الصفصاف نفسها إلا قطرات دموع ؟

لقد نظرت طويلاً إلى السماء والغاب والمروج ، فأدركت أن تعزية الناس للناس إنما هى تعلة من بنات الخيال ؛ وما كان لاريف ليخطر له أن يعزى نفسه أو يوجه إلىّ عبارات التعزية ، فقد كان هذا الرجل يخشى أن أبيع البيت وأذهب به إلى باريس ولعله كان مطلعاً على حقيقة حياتى الماضية إذ كانت تبدو عليه دلائل القلق فى أول الأمر ، ولكنه عند ما رآنى أعد المنزل لأقيم فيه شمرت بنفوذ نظراته إلى أعماق قلبى ، وكان ذلك يوم استحضرت من باريس صورة كبيرة لأبى علقتها على جدار غرفة الطعام ، ولما دخل لاريف ورأى هذه الصورة أخذه الذهول وبدأ ينقل نظراته من رسم والدى إلى وجهى وفى هذه النظرات من تساوى الحزن والفرح ما يصعب التعبير عنه ، فكأنه كان يقول لى : يا للسعادة ، لسوف نستغرق بسكون فى حزننا

ومددت له يدى فأوسعها تقبيلا ، وكان هذا الخادم يعتنى بأحزان سيده كأنها سيدة أحزانه ، وكنت كلما ذهبت فى الصباح إلى القبر أرى أنه سبقنى إليه وسقى أزاهيره لينسحب عند وصولى ويخلى لى المكان

وكان يتبعنى عند ما أمتطى جوادى وأذهب متنزهاً فى الغاب ، فأراه قد أطل علىّ فى الوادى ماشياً يسير ورائى وهو يمسح عرق جبينه لاهثا ، فاشتريت له فرساً من أحد الفلاحين ، وهكذا أصبحنا كلانا نذهب متجولين فى الغاب

وكان فى القرية من معارف أبى من كانوا يزورونه أحياناً ، ولكننى اضطررت إلى قفل بابى دون كل زائر وإن صعب ذلك علىّ ، فما كان لى جلد على مقابلة أحد

وفكرت يوماً أن أطلع على أوراق والدى ، فقدمها لى لاريف بيد خاشعة مرتجفة . فمك رباطها ونثرها أمامى ، وما تلوت الصفحات الأولى منها

حتى شعرت بانتعاش كأن نسمات عليلة هبت علىّ من جوانب بحيرة صافية ساكنة ؛ وكنت كلما قلبت صفحة ونفضت عنها غبار الزمان ، عبقت منها كالعطر حياة أبى تتوالى يوما بعد يوم ، فأعد فيها خفقان فؤاده وأستعرض وقائعها كحقول مساع كلها جد ، وقد نبتت فى كل جوانبها أزاهر العطف والنبل ، وتمازجت ذكريات حياته بتذكار موته ، فكنت أتتبع هذه الحياة تتحدر كالجدول الصافى نحو بحر الموت

وهتفت فى صمتى : أيها الرجل الصالح الذى لم يعرف الخوف ولم يتدنس بلؤم لكم كنت طاهراً فى جهادك ، ومخلصاً فى ولائك ، ووفياً فى حبك لزوجك أمى ، لكم كنت معجباً بالطبيعة ، ومتعبداً لربك ، فحصرت فى هذه العواطف كل حياتك ، ولم تدع لسواها منفذاً إلى قلبك ، فما كانت الثلوج على أعالى الجبال بأنقى من ناصع شيبك فى شيخوختك الصالحة ، ألق هذا الشيب على رأسى يا أبى فان فيه من الشبيبة ما ليس على شعرى الذهبى . هبنى أن أعيش كما عشت أنت وأن أموت كما مت ، فانى أريد أن أغرس فى التراب الذى يواريك غصناً ناضراً لحياتى الجديدة فأسقيه من دموعى والله راعى كل يتيم ، ينمو هذا الغرس المقدس ليظلل أوجاع ولد وتذكار شيخ ...

وبعد أن اطلعت على الأوراق جميعها ، قررت أن أدون أنا تذكارات أيامى فأعددت لها كتابا على مثال كتاب والدى ، وبدأت بالسير على آثاره وطبع حياتى على غرار حياته . فكانت الساعة كلما دقت تذكرنى بحركة من حركات أبى وسكنة من سكناته فكنت أتبع فى الطعام والقراءة والتنزه الخطة التى اتبعها هو فتعودت الحياة الهادئة المنظمة تدخل الطمأنينة إلى قلبى طول نهارى ، حتى إذا جاء المساء رقدت مستكناً وأنا أشعر بالغبطة حتى فى أحزانى

وكان والدى شديد الميل إلى العمل فى الحديقة فيوزع أوقاته بعد حرثها توزيعاً متساويا بين الطالعة والتنزه فيعطى لعقله ولجسده ما يحق لكل منهما واقتديت بأبى أيضاً فى أعمال البر متمماً ما بدأ به فكنت أذهب مفتشاً عن من أتمكن من مد يد المساعدة لهم ، وعددهم وفير فى الوادى حتى اشتهرت بينهم . وهكذا لأول مرة فى حياتى شعرت بالسعادة فليس كراحة ما يطهر الأحزان ويقدسها . فقد بارك الله دموعى فتعلمت الفضيلة من الآلام ...

(يتبع) فليكس فارس

مكافأة

لمن يدل على القاتل

تعطى مجلة « الرواية » مكافأة وقدرها ٥ جنيهات لمن يدل على القاتل فى القضية المشار إليها فى « يوميات نائب فى الأرياف » للكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم التى تنشرها المجلة تباعاً على أن تصل الردود إلى المجلة قبل أول يوليه مع بيان الأدلة بوضوح وإيجاز

الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصول السابقة

« انتهت حرب طروادة ولكن أوديسيوس العظيم لم يعد فيمن عاد من أبطال اليونانيين إلى بلادهم ، وكانت زوجته بنلوب آية فى الجمال ، فطمع فيها كل أمراء النواحى وحاصروا بيتها ليرغموها على التزوج من أحدهم . وكان لأوديسيوس ولد اسمه تلماك حرضته مينرفا ربة الحكمة على الإبحار ليسأل عن أبيه ملكى پيلوس وأسپرطه . وغيظ العشاق لما علموا بإبحاره فتربصوا له ليقتلوه . أما أبوه فانه لما أبحر من طروادة نسى أن يضحى للآلهة فغرقت أساطيله ونجا هو إلى جزيرة تسكنها عروس الماء كاليپسو التى عشقته أول ما رأته وأبقته عندها سبع سنين ، حتى أمرها كبير الآلهة زيوس أن تطلق سراحه فأبحر على رمث صغير ، ولكن نپتيون عدوه الأكبر لمحه وهو يقترب من أرض ملوك البحر فأغرقه مرة أخرى ، وبعد نضال شديد سبح إلى الشاطئ حيث لقى نوزيكا ابنة الملك فأرشدته إلى بيت أبيها الذى أكرم مثواه ووعد أن يرده سالما إلى بلاده . وأقام الملك حفلاً رياضيا اشترك فيه أبطال المدينة وغمز أحدهم أوديسيوس بكلمات ينعى عليه فيها أنه لا يعرف من الرياضة شيئا وإلا لشارك فى تلك الألعاب ، فغضب أوديسيوس ونهض فقذف بالقرص الكبير قذفة بلغت من المدى أضعاف ما قذف أقوى أبطالهم ، ثم تحدى الجميع لمصارعته وملاكمته فتقاعسوا ... وسأله الملك من هو ولم كان يبكى حينما سمع المنشد يذكر حروب طروادة وبطلها العظيم أوديسيوس ... وهو هنا يجيب عن أسئلة الملك بهذا الفصل الفريد الذى يرتفع فيه هومير إلى الذروة »

هوميروس

فى أرض المردة (السيكلوبس)

وشرع أوديسيوس يجيب عما تساءل عنه الملك فقال : « أيها الملك تعالى جده ، لشد ما يطرب ما تغنى هذا المنشد غناء الآلهة ! ولقل ما تعدل الدنيا بأسرها هذا المجلس الشادى ذا الأضياف والآكال والأشربات ! على أننى مجيبك على ما بدهك من دموعى وهمومى ، وما لقيت وما سوف ألقى مما قسم لى من أشجان وأحزان ! إذن فاعرف اسم ضيفك الشريد الذى لا يجهل اسمه أحد ... ضيفك اللائذ بكرمك ، المستذرى بحماك ، المتشبث بك ليصل فى ظلك إلى بلاده مهما تقاصت ومهما نأت ... أنا أيها الملك ... أوديسيوس ... أجل ... هو أنا أوديسيوس ذو الذكر ، المعروف فى السموات بالدهاء والمكر ، ... ابن لبرتيس رب إيثاكا ، وملك نريتوس ذى الشماف السامقة ، والجزر الآهلة حول ساموس ودلخيوم وزاسنتوس ، أم الجزائر التى تصافح تباشير الصباح بكل روضة فيحاء وخميلة لفاء ، وجنات ذوات

شجر وثمر، صبغاً لأبنائها الأوفياء ... هناك... حيث احتجزتني عروس الماء كاليبسو في كهفها، وراودتني لأكون بعلها ... وهناك ... حيث أغرتني سيرس هي الأخرى، سيرس صاحبة جزيرة إيايا ... التي حاولت أن تتخذ مني خليلا فأبيت، ولم أقبل أن أضحي وطني وأهلي، ولو أصبحت زوجاً لاحدى الربات الخالدات ... ولكن لا، هلم قبل كل شيء أقص عليك من أنباء رحلاتي منذ بارحت إليوم، ولأدع ما قبل ذلك فهو معلوم مشهور:

« أقامت بنا الفلك إلى بلد السيكون (إزماروس[1]) ، (فبدا لى أن أزيد في ثروة رجالي وما فازوا به من أسلاب طروادة، فأشرت عليهم بفتح المدينة واغتنام ما فيها من كنوز وأذخار[2]) وسرعان ما تم لنا ذلك، فقتلنا العسكر وملكنا القرية، ووزعت السبي والأسلاب على جنودي، ثم أشرت عليهم بالرحيل فعصوا أمري، وعثوا في المدينة مفسدين، وعاقروا من الخمر وعقروا من الشاء ما أذهلهم عن أنفسهم، وأتاح لأعدائهم لم الشعث، ففجأونا بجيش عرمرم منهم ومن جيرانهم، وناضلونا عن مدينتهم فأوقعوا بنا، ولم يغننا أنا قاتلناهم حتى مطلع فجر اليوم التالي، بل ظل فرسانهم الصناديد يكرون ويفرون، حتى قذفوا بنا في البحر، فوقفنا في سفائننا نناوشهم برماحنا ... وصمدنا لهم حتى توارت الشمس بالحجاب ... فانسحبنا نجر أذيال الهزيمة والخزى، بعد إذ انتزع السيكون فخار النصر. وعدت إلى الجند ... فوا أسفاه! ... لقد افتقدت ستة من رجال كل سفينة ... سقطوا في المعركة الخاسرة!

وأجننا الليل، فجلسنا نتذاكر أسماء القتلى؛ وما كدنا نفعل حتى سخر علينا جوف رب السحاب الثقال — ويحاصر صرا عاتية أثارت البر والبحر، وعصفت عمرا كبنا فأطاحت ثلاعها ومزقت شراعها، ففزعنا إلى المجاذيف وأعملنا السواعد، مستقتلين مستميتين، حتى نجونا بعد لأي إلى البر، حيث لبثنا ليلتين طويلتين في أين وإعياء، وشكاة وشقاء، نصلح القلاع ونرتق الشراع ..

وفي صباح اليوم الثالث تطامن البحر ونام هائجه، فبادرنا إلى الفلك وأقلعنا باسم الآلهة مجراها ومرساها. وما كدنا نلمح شطئان ماليا، حتى هبت زوبعة عنيفة تلاعبت بنا، وحملتنا إلى جزيرة سيتيرا ... وطفقنا بعدها نذرع العباب تسعة أيام أخرى، حتى بلغنا بلاد (لوتوفاجي)، هذا الشعب الغريب الذي يقتات بالفاكهة فحسب، من دون ما تنبت الأرض وما يدب عليها ... ورسونا ثمة، وأهرع الملاحون إلى البر فاستراحوا وسمروا؛ ثم تخيرت اثنين من أوثق رجالي، وجعلت عليهما ثالثا رئيساً ووجهتهم إلى سكان هذه الأرض ليتعرفوا أحوالهم، فاختلطوا بهم، وقابلهم اللوتوفاجي بالبشر والترحاب؛ ثم عرضوا عليهم من ثمر اللوتس العجيب، الذي ينسى آكله ما أسلف من حياته، وتَنْبَتّ ما بينه وبين وطنه من وشيجة فما يفكر فيه، وإذا فكر فيه فما يؤثر أن يرتد إليه، بل يصبح كل مناه أن يأكل ويأكل ويأكل من هذا اللوتس العجيب، وأن يعيش أبد الدهر بين أولئك اللوتوفاجي السحراء! ... وتنظرت عودة رجالي،

(١) على الشاطىء الشمالي لبحر إيجه

(٢) ما بين القوسين من شرح الأستاذ جرير وليس من متن الأوذيسة

بيد أنهم لم يرجعوا ، فاضطررت أن أذهب بنفسى إلى حيث هم ، فحملتهم قسراً إلى الشاطئ بين العويل والضجيج ، وقذفت كلا منهم فى قمرة مغلولا مكبلا مشدود الوثاق ، ثم أمرت الملاحين فأبحروا على عجل قبل أن يأكل بعضهم من اللوتس الملعون فيضل ضلالهم وينسوا أوطانهم ، ويظلوا فى هذه الأرض جائعين

« وما عتمنا أن وصلنا إلى أرض المردة الجبابرة السيكلوپس — الطغاة العتاة ، الذين لا يخضعون لشريعة ، ولا يأتمرون بقانون ؛ الذين تؤتى أرضهم أكُلَها رغدا من غير كد ولا عناء ... حَبًّا وأبًّا ، وحدائق غُلْباً وقَضْباً وعنبا ، تُسقى مما يفيض عليها جوف من مائه المعين ... يعيشون فوضى ، لا تربطهم رابطة ، ولا يقوم بينهم نظام ؛ يأوون إلى كهوفٍ موحشة ، وغيرانٍ سحيقة ، فى قلل الجبال وأحيادها ... يُعنى كل منهم بنفسه وزوجه وأولاده وقطعانه ، ولا يأبه للباقين ، وتلقاء أرضهم توجد جزيرة معشبة أريضة شجراء ، فيها من الماعز السائم قطعان لا حصر لها ، ولكنها مع ذلك بهماء[1] مُضِلة ، لم تطأها فيما غبر قدم إنسان ، ولم يُرَش إلى حيوانها منهم صائد ، لأن السيكلوپس لم يحاولوا أن يركبوا البحر مطلقاً ، ولم يعرفوا طوال حياتهم هذه الجوارى المنشئات فيه كالأعلام . لذلك سلمت الجزيرة بما فيها من خير ، وتكاثرت قطعانها حتى امتلأت بها مروجها الخضر السندسية ... وثمة ، فى جَوْن هادئ جميل ، ألقينا مراسينا ، ونزلنا من سفائننا ، فى ظلام الليل الدامس ، وفى حراسة الآلهة ، بعدإذ ارتطمنا بسيف البحر ... ثم نمنا على الشاطئ حتى مطلع الفجر ؛ وأشرقت أوروورا تنضر بالورد مشرق الأفق ، فنهضنا نجوب الجزيرة ، ونتفيأ ظلال الحور ، ونرى عرائس الماء ترعى الماعز ؛ فبادرنا إلى سفننا ، وأحضرنا الحراب والأقواس ، ثم تفرقنا ثلاث فرق ، وشرعنا نصيد من هذا الحيوان ، فاجتمع لنا منه الشىء الكثير ، ونال كل من رجال سفائننا الاثنتى عشرة تسع أعنُز ، بعد أن تخيرت عشْرا لنفسى ؛ ولبثنا يومنا هذا نغتذى بكل شواء حنيذ ، ونكرع كل كأس روية ، فى غير تخمةٍ ولا شجى[1] . . . وللآلهة تلك الخمر السلاف السيكونية التى افترعناها من زِقاق أزماروس ! ثم نظرنا ناحية الغرب ، فما راعنا إلا دخان كثيف يصّاعد فى الأرض القريبة ، ورغاء وضوضاء كالرعد تنتشر فى جنباتها ، وإذا هؤلاء السيكلوپس المردة ينتشرون فى الأرجاء ، وأمامهم قطعانهم من الشاء والأنعام ... أعداد لا حصر لها ... عليها إذا عُدَّ الحصى يتخلف !

ونمنا ليلتنا مروعين ، حتى إذا بزغت أوروورا نهضنا واحتشدنا فى صعيد واحد ، ثم قمت فى رجالى خطيباً ، فقلت : « أيها الأخوان ! لتبق غالبيتكم فى هذه الجزيرة ، فانى ذاهب فى نفر منكم نرود هذه الأرض ، ونعرف من أنباء أهلها ، ونعلم من أحوالهم ، ونرى هل قوم ظلم وضيم ونضال هم أم ربيون يهشون للمكرمات ، ويحبون للآلهة ؟ »

« وأقلعت فى نخبة من رجالى فوصلنا طرفاً من الجزيرة ناتئا فى البحر ، فوقه قلاع مشرفة عليه ، فهبطنا فيه ، وذهبنا نروده ، حتى انتهينا

(١) مضلة لا يهتدى فيها

(١) الشجى هو الغصص بالشراب

إلى كهف عظيم ضارب فى الصخر ، وقد نما الغار الجميل عالىَ بابه الضخم ... ودخلنا ... وأثار دهشتنا هذه الحظيرة الكبيرة فى وسط الكهف ، تتسع لقطعان لا عدد لها من الأنعام والأغنام والماعز ، ثم هذا الفناء العظيم المحدق بها يفصله عنها سور عتيد من الحجر الصلد ، مُتَرسٌ بجذوع الحور والسنديان ؛ ولقد عرفنا فيما بعد أن صاحب هذه المغارة مارد جبار من أراذل السيكلوپس ، لصق بهذا الطرف من الجزيرة يعسف ويظلم ويعاوه بغياً وعدواناً . . . ثم هو إلى الجان والشياطين أقرب منه إلى أى خلق آخر ؛ فوجهه مريد عبوس أبدا ، وهو إلى ذلك هولة تحسبه إذ تراه قطعة من الصخر نحت منها ناطور فوق ناصية الجبل . . ؛ . . وتوقلنا[1] ... وكان معى زق من خمر معتقة مما أعطانيه مارون بن إيفانت ، قسّ فوبوس ، رب إزماروس ، لقاء ما أبقينا عليه وعلى زوجه وأولاده يوم غزوتنا لقريته . . . يا له من كاهن سمح طيب القلب ؟ ! لقد نفحنى بأكرم اللّهى[2] وأجزل الهبات ؛ وهل أنسى ما حييت تلك البدَر السبع من الذهب الخالص ، وذلك الدّن من الفضة الغالية ، وتلك الجرار الاثنتى عشرة من الخندريس الصرف التى تُشرب باسم الآلهة ؟ لقد كان يفديها بنفسه وماله ، فلم يكن يعرف مخبأها أحد غيره وزوجه وأمينه . . . لقد كانت كأس روية واحدة من هذه المدامة تمزج بعشرين ضعف من الماء القراح ، وهى مع ذاك سكْر ولذة وروْح علوى للشاربين ؛ ثم كان معنا رُكْزاً[1] به أكل كثير ، وكنا عدداً عديداً من الأبطال الصناديد ، ولكنا مع ذاك كانت تعترينا رعدة ، وكان يشيع فى قلوبنا فزع ، أن يفجأنا هنا الجنّى صاحب المكان ، الذى لا يخشى فينا شريعة ، ولا يرده عن أذانا قانون . . . ، ثم توقلنا كذلك ، فأشرفنا على مغارة سحيقة هى مقام السيكلوب ومنامته من غير ريب ؛ بيد أننا لم نجده عندها ، فقلنا ربما انطلق بقطعانه يرعاها فى الروج القريبة .. ورددنا الطرف فى المغارة فرأينا مصافىَ كثيرة معلقة بنز الحصير[2] منها ههنا وههنا ، فعرفنا أن السيكلوب يصنع الجبن من ألبان مواشيه ، سيما وقد امتلأ المكان بمواطٍ كثيرة مفعمة بالحصير والمخيض . وعلى مقربة منا شهدنا حظائر واسعة لصغار الشاه والحملان والماعز ، وقد قسّمت فرقاً حسب سنها ... وقد بدا لبعضنا أن نذهب بما هنالك من جبن وزبد ، وأن نسوق الحملان والجذعان إلى سفائننا ، غير أنى — وا أسفاه ! — تأبيت ، لأننى آثرت لقاء السيكلوب ، رجاء أن ينفحنى من كنوزه ، ويسبغ علىّ من آلائه ؛ ولذا ، جلسنا ريثما يعود ، وأكلنا من جبنه وزبده ، وأشعلنا ناراً نستدفئ ، ثم إذا هو يطوى الروج الخضر بقطعانه ، وإذا على كاهله الرحب أثقال وأحمال من الحطب وفروع الشجر اليابس ، حتى إذا كان لدى الباب ألقاها فى بطش فاهتزت الأرض ودوّى المكان ، وانحبس وصيد الكهف ، فانقذف الرعب فى أفئدتنا ، فهرولنا مذعورين صمقين ، واختبأنا كالخافيش فى زوايا

(١) توقل : صعد فوق جبل
(٢) العطايا

(١) الركز (الخرج) بضم الراء ما يحمل فيه الزاد
(٢) الماء يسقط من الجبن

المغارة وشقوقها ... أما هو ، فقد أدخل قطعانه ، واحتجز ذكرانها فى الفناء الخارجى ، ثم أخذ فى حلب الأناث فى الرحبة الداخلية . . . ونهض بعد ذلك فسد مدخل الكهف بحجر واحد كبير لو وضع على عربتين عظيمتين لم يستطع عشرون ثور ضخم أن تزحزحه من مكانه ... وجلس يحلب النعاج والماعز ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى جذعانها [1] ترضع ما تبقى فى ضرعها . . . وكان يقسم لبنه قسمين ، فيحتفظ بأحدهما لشرابه ، ويمخض الآخر لزبده وجبنه ثم فرغ من هذا كله وأضرم ناراً عظيمة ما كادت تلتهب حتى رآنا معلقين فوق نؤى الكهف . فصاح بنا : «من هنا ؟ وىْ ! من أنتم أيها الغرباء ، ومن أى البلاد نزحتم وفيم خضتم هذا العباب إلى هنا ؟ آفاقيون ؟ أم تجار ؟ أم قرصان تعيثون فى بلاد الناس ؟ » وزلزلنا زلزالاً عظيما ، وكان صوته الأجش الخشن يلقى الرعب فى قلوبنا فتعتلج اعتلاجاً ... ثم إنى جمعت ما تبقى من وعيى ، وما أبقى عليه الروع والهلع من إدراكى ، فقلت أجيبه : « نحن إغريقيون أيها العزيز وقد ذرعنا البحر اللجى شرقاً ومغرباً ، وتقاذفتنا فوقه كل ريح ، منذ بارحنا إليوم التى فتحها الله علينا ، لأننا من عساكر أجا ممنون الملك ، ابن أتريوس الكريم ، قاهر طروادة ، ومبيد الطرواديين . . . وها نحن أولاء ، قد لذنا بك بعد طول النصب ، فنضرع إليك أن تقى علينا مما أفاء جوف عليك ، وأن تردنا غانمين . . . فيا مولانا أكرم مثوانا ، فنحن الأغراب فى كنف جوف أبداً ، وأينما نولّ فانه معنا »

(١) جمع جذع بفتحتين كل حيوان صغير غير مفترس

وتجهم السيكلوب الجبى وقال مغضباً مستهزئاً : « حَسْبُك أيها الأخ المغفل ما خَوّفت من جوف ، فنحن السكلوپس لا نبالى جوف ، حامل إيجيس [1] ، ولا سكان السماء قاطبة ... أنا أقوى منهم بكثير ، وأنا نفسى ، لن آبه لأيما نذير من جوف كبير الأولمب ... ولكن حدثنى قبل كل شىء متى ألقت سفينتكم مراسيها فى أرضنا ؟ وأين هى ؟ أقريبة أم قاصية من هنا ؟ قل الحق ولا تخف عنى شيئاً » ... وأجبته فى حيطة ورفق ، وقد عرفت ما رمى إليه : « لقد نسف نپتيون رب البحار مركبنا فى اليم نسفاً ، وسلط عليها الزوابع فجرت بألواحها بعيداً . . . بعيداً من ههنا . . . ونجوت مع هذا النفر من رفاق فقط إلى شاطئكم » ولم ينبس السيكلوب الجبار بكلمة ... بل أقبل نحونا ، وانقض على رجالى كالصاعقة ، ثم أمسك باثنين منهم ، وأرساهما فى الهواء ، ثم ضرب بهما أرض الكهف ذات النؤى ، فتهشم رأساهما ، وانتثر المخ فوق الحجارة هنا ... وهنا ... وألقمها بعد ذلك فى الجمر المتأجج حتى نضجا ... واستوى كالسبع الرئبال ، وطفق يتهشمهما ... ولم يمض وقت طويل حتى أتى عليهما ، غير مبق على عظمة واحدة أما نحن فيا لآلهة السماء . . . لقد كان هذا المنظر الفاجع يعصف بنفوسنا ، ولم نملك إلا أن نرفع الأكف فنبتهل إلى جوف أن ينجينا . وأن يرحمنا ولم يكن لنا مع ذاك من أمل فى نجاة ! !

وبعد أن أشبع الجبار نهمته من هذا اللحم الآدمى الغريض ، وبعد أن شرب من اللبن شرب الهيم ، انطرح بين قطعانه ، وجعل يرسل فى

(١) درع

الكهف شخيراً مزعجاً . . . ولقد حدثتنى نفسى أن أنقض عليه فأخوض فى لَبَّتِهِ بحزارى ، ولكن فكرة سوداء طافت برأسى ، حينما نظرت إلى باب الكهف فأبصرت الحجر الضخم الذى لا يطيق أحد أن يزحزحه ، وتذكرت الموتة الجاهلية المفزعة التى سنموتها إن فعلت ... فقنطت قنوطاً شديداً ، وأرسلت آهات الحسرة والندامة أنا وأصحابى ، وانتظرنا بقلوب فارغة تباشير الفجر ورأينا أورورا الوردية ترسل أول أشعتها من الكوى الصغيرة ، فهب السكلوب إلى قطعانه ، وأخذ فى حلب إناثها ، وكلما فرغ من واحدة أرسل إليها صغارها ترضع وتنخب ؛ ثم إنه قبض على اثنين من رجالى وفعل بهما كما فعل بصاحبينا أمس ، حتى إذا فرغ من إفطاره ، هب إلى الحجر فزحزحه فى سهولة ويسر ، كأنما كان يزحزح غطاء آنية ، ثم استاق قطعانه ، وأعاد الحجر إلى مكانه ، ومضى يرعى بُهمه ، وبقينا نحن ندعو ثبورا ... وفكرت ألف فكرة فى وسيلة أنتقم بها من هذا المارد الوحش ، وتوسلت بميرفا أن أستطيع . . . وانفرجت أسارير وجهى فجأة ، وأشرق وجهى بنور الأمل ... ذلك أننى أبصرت بجذع زيتون مشذب أعده الجنى ليكون عصا يهش بها على قطعانه ، فقلت فى نفسى : « ولم لا يكون فى هذا الجذع خلاصنا ؟ » ، ثم إنى أمرت رجالى بِبَرْىِ أحد طرفيه ، وكان الجذع طويلاً جداً ، يصلح سارية لسفينة كبيرة يعمل فيها عشرون بحاراً ... فأقبلوا عليه يتحتون ويبرون ، وأكببت أنا على نهاية الطرف أحدده ... ثم انتهينا من عملنا وأخفينا الجذع تحت القش الكثير الملقى فى الكهف ، وجلسنا نتخير من بيننا أشجعنا وأكثرنا أيداً وقوة ، وأشدنا استعداداً لحمله وغرزه من طرفه المحدد فى عين السيكلوب . . . وانتهينا من ذلك إلى أربعة ، وكنت أنا خامسهم . . . ثم عاد الجنى فى موعده فأدخل قطعانه وأرجع الحجر إلى مكانه ، وجلس يحلب الأناث ويقسم اللبن ويمخضه ، ويرسل كل جذع إلى أمه ؛ ثم نهض إلينا فبطش باثنين منا وتعشى بهما ، وقبل أن يستلقى على الأرض ليستريح أقمت كأساً كبيرة مما كان معنا من خمر مارون وتقدمت بها إليه وأنا أقول : « ألا أيهذا السكلوب ! هاك كأساً من الخمر إذا تحسيتها بعد أكلتك الهنية من اللحم البشرى عرفت أى خمر فقدنا فى سفينتنا المغرقة . لقد كنت أحضرتها تكرمة لك إذا أنت أكرمت مثوانا وأطلقت سراحنا وساعدتنا على العودة إلى وطننا سالمين ! ولكن ! أواه ! إن سورتك طامية أيها القاسى الجبار ، وإن أحداً من البشر لن يجسر أن يقترب من جزيرتكم بعد اليوم ! » . وأخذ الكأس فعبها عبّا ، وسر بها سروراً كبيراً ، ثم سأل أخرى فقال : « أيها الفتى ما اسمك ؟ إعطنى كأساً أخرى وإنى مثيبك عليها . إن لدينا خمراً صرفاً من أكرم ما تعصر العناقيد ، يسقيها جوف من شآبيبه ، ولكنها أبداً لا تبلغ هذه الخمر البكر جودة » وأعطيته ثانية وثالثة ، وراح المجنون يشرب ويشرب ، ولما شهدت النشوة ترقص برأسه قلت له فى ظرف : « أيها السيكلوب لقد تساءلت عن اسمى ، ألا فاعلم أنه أوتيس[1] ،

(١) أوتيس Outis معناها (لا أحد) ولم يستحسن مترجمو هومر ترجمتها ، لأنها قد تعنى (ذو الأذنين الكبيرتين) ولكنا نؤثر ترجمتها

وبه أسمى فى بلادى ! ولكنك وعدت أن تثيبنى على ما قدمت لك من خمر ، فماذا عساك ما تحى ؟ » فاستهزأ السيكلوب وقال : « اطمئن ياصاح ! سأهب لك أن تكون آخر من آكل من إخوانك .. هذا هو جزاؤك ! » وتثاءب وتثاءب ، ثم انطرح وسط قطعانه يغط فى نوم عميق ... وكان يصعّد أنفاسه بقوة فتتقذف من بلعومه شوائب من خمر ، ممتزجة بقضمات من لحم بشرى ... ؛ ... وقفزنا إلى جزع الزيتون فوضعنا طرفه المحدد المبرى فى الجمر المتأجج حتى تأجج مثله ، وبكلمات قليلة أثرت النخوة فى نفوس إخوانى حتى لا تخذلهم قواهم ، ثم استعنت الآلهة فابتعثت فينا قواها السحرية ، واستجمعنا كل ما فينا من مُنّة اليأس ، ووضعنا الطرف المشتعل فى عين السيكلوب المقفلة ، وحركنا الجذع وطفقت أنا أقلبه فيها من مكان عَلُ ، كما يفعل السَّفان الصناع بمثقابه فى خشب السنديان ... وانبجس الدم من عين السيكلوب العمياء ، وجحظ إنسانها كأنه عين حمئة من دم وعلز ... وقصارای : لقد كنا كالحداد الماهر الذى يطفىء سلاحا محمى فى ماء بارد ! ! ولقد صرخ السيكلوب[1] صرخة ردد أصداءها الكهف .. ثم رددتها الغيران والجبال المجاورة ؛ وذعرنا نحن ، فلصقنا بالشقوق والزوايا ؛ وراح الجنى الجبار يخبط فى ظلام العمى بعد إذ انتزع الجذع المشتعل من عينه ، وهرول كالجبل نحو الباب فوقف عنده ، وطفق يولول ويهتف ويصيح ، ويدعو جميع إخوانه السيكلوپس كلاً باسمه ، فاجتمعوا إليه من كل فج عميق ... وقال قائلهم : « ماذا دهاك يا پوليفيم حتى تروعنا هكذا فى ظلام الليل ، وحتى تقض مضاجعنا بصراخك الفظيع ؟ هل خفت أن يستاق أحد قطعانك ، أم خشيت أن يقتلك أحد بقوة أو غدر ؟ » وقال پوليفيم وهو يتصدع : « آه يا أصدقائى ! إنى أموت ! ولقد قتلنى أوتيس[2] ! » فقال قائلهم : « إن كان أوتيس — الذى هو لا أحد — قد ألحق بك أذى فما صنع بك هذا إلا چوف ؟ تجلد ياصاح ، وادع أبانا نپتيون ليساعدك ، يأتك من أعماق اليم » وتركوه وانصرفوا لشأنهم ، وضحكت أنا فى سريرتى لأنى استطعت أن أعمى عليهم بهذا الاسم الملفق المفترى . وما برح پوليفيم يبكى ويعول ويهزه الألم والأسى ، حتى زحزح الحجر الذى يسد الباب ، وجلس عنده ، ماداً ذراعيه ليمنع أحداً منا أن يفلت أو أن يذهب ببعض أنعامه . . . إنه يحسبنا بلهاء مثله !! . وجلسنا نعمل الفكرة بعد الفكرة ، ونرسم الخطط تلو الخطط لنجاتنا .. حتى تاحت لى فكرة حسنة ، أيقنت أنها تفلتنا من هذا السجن السحيق إن كان شىء مستطيعاً أن يطلق سراحنا منه لقد فكرت وفكرت ، فبدا لى أن لدى السيكلوب كباشاً كباراً تستطيع أن تحملنا إذا ربط كل منا تحت بطن واحد منها . ولقد كانت الكباش سمينة حقاً ، ذات فراء كثة وقوة كبيرة فقمت من فورى فجدلت من أغصان الصفصاف التى كان السيكلوب الشنيع ينام فوقها ، وجعلت من كل ثلاثة حبلاً واحدا ، ثم ربطت كل رجل تحت بطن كبش كبير قوى جعلته بين كبشين لا يحملان أحدا ، بل يكونان وقاية للكبش الذى يحمل رجلا

(١) يحسن أن نلفت نظر القارىء إلى طبيعة السيكلوب وأنه لا يملك إلا عيناً واحدة

(٢) ليذكر القارىء أن معنى أوتيس (لا أحد)

بينهما ... أما أنا فتعلقت بصوف الكبش الأخير ، وبقيت ساكتا صامتا ، ومكثنا هكذا ننتظر الفجر المقدس الرهيب ، بعيون واكفة وقلوب واجفة ... حتى بزغت أورورا فمروات الذكران كعادتها المرعى ، وبقيت الأناث لكى تحلب ، وتهادت الكباش بالأثقال الملقة تحتها وهى تكاد تنوء بها ، وكان السيكلوب ما يزال يعول ويشكو بثه إلى غير سميع ، وكان يلمس بيديه ظهور الكباش وهو لا يدرى ما تحتها ، حتى إذا برز كبشى ، زلزلت زلزالا ، وسمعته يقول له وهو يتحسسه : « يا كبشى الحبيب مالك استأنيت هكذا وكنت دائما سباقا إلى المرعى على رأس القطيع تقضم الكلأ الحلو ... سباقا إلى الغدير ذى الخرير تنهل من مائه السلسبيل ؟ بل كنت سباقا كذلك إلى مأواك هنا ... فى كل مساء ؟ ويحى وويحك يا كبشى الحبيب ! لقد أسيت لى ، وحزنت من أجلى ، وشمرت بما دهى صاحبك من التعس الرجيم أوتيس ، وأتباعه اللؤماء الملوكين ... أوتيس الذى سحرنى بخمره ... ويل له ؟ إنه لن يُفْلَت من الموت اليوم ! آه لو كان قلبك مثل قلبى ، وآه لو كان لى بصرك الحديد فيدلنى أين اختبأ أوتيس التعيس ! إذن كنت أحطم رأسه فوق هذا الصخر ، أوتيس الوغد ... الذى اسمه لا أحد ! ! فهو لا يساوى شيئا ؟ »

ثم أفلته المقفل فانطلق الكبش فى إثر رفاقه ، حتى إذا كنا بعيدين من الكهف ومن صاحبه قفزت من مكمنى ، وعدوت فأطلقت سراح رفاقى ، وسقنا نخبة من أحسن النعاج إلى حيث سفينتنا المختبئة فى الجون الهادىء ... فى ظلال الحور والسنديان ... وأبحرنا من فورنا فوصلنا إلى إخواننا فى الجزيرة الأخرى الذين هنأونا بقدر ما ذرفوا الدموع على ضحايا بوليفيم ! ! واعتزمنا الأبحار فاستعد كل فى سفينة ، وأقلعنا لا نلوى على شىء . حتى إذا كنا على مسافة مبلغ الصوت من الشاطىء ، نهضت وجعلت أهتف بالسكلوب بوليفيم هكذا : « بوليفيم ! لقد بؤت بما صنعت يداك ، وكان جزاؤك وفاقا ، أيها النذل الخسيس ! لقد حسبت أنك تغتال رجال قائد لا سلطان له عليك ، ولا قدرة له على الانتقام منك ، فرحت تغتذى كالوحش باحم ضيوفك الذين لجأوا إليك وتفيأوا ظلك ... فاهنأ الآن أيها الهولة بما حل بك ! » . وما كدت أصمت حتى ثار ثائره وغلت مراجله ، وانتزع صخرا كبيرا من شعاف الجبل ، وقذف به فى قوة وعنفوان ناحية الصوت ، فهوى الصخر على مقربة منا ، وكاد يهشم سكان السفينة ؛ وقد انفرج البحر ، وانشطرت أمواجه ، وارتدت السفينة نحو الشاطىء حتى كادت تغوص فى رماله وتتحطم على أواذيه ، لولا أن أمسكت بالسارية الكبرى وجعلت أدفع وأدفع حتى عادت السفينة إلى مكانها فى البحر ... وابتعدنا قليلا ... وجاهد رجالى بمجاذيفهم حتى كنا على مسافة هى ضعف المسافة الأولى ... وهنا ، حاولت أن أصيح بالسيكلوب مرة أخرى ، غير أن إخوانى حالوا بينى وبين ذلك ، وسمعت بعضهم يقول : « ويلك أوديسيوس ! لم تهيج الجنى بكلماتك ، وقد كاد الحجر الذى قذفه إلينا يودى بنا جميعا ويحطم سفينتنا على الشاطىء ؟ أما تحمد الآلهة التى أنقذتنا من ساعديه الجبارتين ، وهو لو سمع ركزا من أحدنا لهشمنا جميعا قبل أن نغادر غاره ؟ » على أننى ما أصخت لهم ، بل هتفت بالمارد الجبار أقول : « أيها السيكلوب الطاغى ! إذا سألك أحد من عماك فقل له أعمانى أوديسيوس ابن ليرتيس الأيثاكى ! »

وتأوه المارد حتى كاد يتصدع وقال : « ويلى منك ! لقد صدقت النبوءة ، وتحقق ما قال تلموس يوريميد النبي الذى شب بيننا وظالما تحدث إلينا معشر السيكلوبس عما خبأ القضاء فى صحف الغيب لنا ؛ لقد قال لى إنى سأفقد بصرى بوساطة رجل من البشر يدعى أوديسيوس ، فظللت أنتظره ، وكنت أحسبه مخلوقاً طويلاً عظيم الجسم بادى القوة ... فاذا هو أنت أيها القزم — اللاشىء ! — الذى قهرتنى أولاً بالخمر ثم أذهبت بصرى وأطفأت النور من عينى ! أوه ... ولكن ... عد إلى يا أوديسيوس وحل على ضيفاً من جديد ، أكرم مثواك ... وأسل من أجلك لأبى ... نبتيون ... الفخور بى ، أن يعهد لك البحر ، ويطامن من تحتك الموج حتى تصل إلى بلادك سالما ... إنه وحده هو اللطيف بى ، وليست قوة فى الوجود غيره تستطيع أن تشفينى وترد على بصرى ! » فقلت له : « بنفسى لو استطعت فقذفت بك من حالق إلى قرار جهنم فلايقدر أحد على رد بصرك إليك — حتى ولا أبوك هذا ! » . وغيظ السيكلوب وحنق ، ورفع كفيه إلى السماء يصلى لأبيه هكذا : « أبتاه نبتيون المحيط بالأرض اسمع دعائى ، ياصاحب الشعر اللازوردى ، إذا كنت حقاً أبى ، وإذا كنت حقاً تفخر ببنوتى فاحرم هذا القزم المدعو أوديسيوس بن ليرتيس الأيثاكى من العود إلى بلاده ، إلا أن يكون هذا قضاء فى الأزل فأقم العقاب فى طريقه ، وشرده طويلاً فى البحر ، وأغرق سفائنه واقبر فى الأعماق أصحابه ، وأحوجه إلى ذل السؤال وطلب المعونة من الناس ليمدوه بمركب يعود عليه ؛ وإذا عاد فليلق الهم والغم مقيمين ببابه ... آمين ! » ولبى نبتيون ، ورفع السيكلوب حجراً أضخم من الأول ، وجعل يهوم به بكلتا يديه ، ثم قذفه قذفة هائلة ، فذهب يرنق فوقنا ، وسقط وراءنا بمقربة من السكان ، فانشطر البحر إلى فرقين كل فرق كالطود العظيم ، ثم انحسر الماء فجرت السفينة إلى الشاطئ مرة أخرى ، ولكنها هذه المرة أرست على الشاطئ الآخر الذى أرست عنده سفائننا الأخرى ، حيث أقام إخواننا يشهدون المعركة الهائلة ويجزعون ... ثم إننا نزلنا إلى البر ، وفرقنا الأنصبات من نعاج السيكلوب بيننا . وكان من نصيبى ذلك الكبش المفدى الذى نجانى ، فذبحته على رمال الشاطئ قرباناً لجوف المتعالى ... والأسفاه ! إن أكبر ظنى أنه لم يقبل قربانى ، لأن أكثر سفائننا أغرقت فيما بعد ... وأكلنا هنيئاً ، وشربنا الخمر المعتقة ، وانتظرنا مد البحر ، ولكنه استأنى علينا ، فنمنا حتى نضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، ونهضنا . . . ونشرنا الشراع وأصلحنا القلاع ، وأبحرنا ، بقلوب واجفة ، ونفوس نال منها الهلع ، لائذين بالفرار

(يتبع)

دريني خشبة

فى الطريق

كتاب جديد يصدر فى سبتمبر

بقلم الأستاذ

ابراهيم عبد القادر المازنى

أكثر من ٦٠ قصة فى ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش

الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك يقفل فى منتصف أغسطس

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر